شجرة التفاح

جون كالزورثي

ترجمة علي اللقماني

شجرة التفاح

جون كالزورثي

ترجمة علي اللقماني

شجرة التفاح (١٩١٧م) ، رواية كتبها الإنجليزي البارز، الكاتب المسرحي وكاتب القصة القصيرة، جون كالزورثي. أشهر رواياته هي " رجل الملكية" و " الكوميديا الحديثة" و " فورسيت ساغا". يقدم في أعماله صورة حقيقية للمجتمع البرجوازي الإنجليزي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. يعتبر رواية شجرة التفاح هي " الأكثر حرفية ، وأكثرها رمزية ، وأكثرها شاعرية".

مقدمة

عصر القصة

يقول جورج سيمنون الكاتب البلجيكي المعاصر الذي يعتبره اندريه جيد « نابغة عصرنا» :

نحن سائرون من الان نحو « عصر القصة» ، القصة المحض. و لست ادري ماذا اقصد بالقصة المحض. و لكني ادرك المعنى و ان شق على التعبير. و اذا قيل لي: قد سبقنا تريستان و ايزوت و مانون ليسكو و برنسس دوكلو و مارسيل بروست و بالزاك و ديكنز و داستويفسكي، لأجبت:

و مع هذا، فنحن سائرون من الان فصاعدا نحو « عصر القصة». العصر الذي ستجد فيه القصة قالبها الكلاسيكي حينما تكون « حاجة» .

ولعمري انها نبوءة لم يفتها التوفيق. فها هي ذي القصة في عصرنا بدأت تأخذ شكلها « كحاجة» . و أخذت منذ نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين تكتسح بشكل ضاهر سائر انواع العمل الأدبي كالشعر والدراسة و الاطروحة و المقال و الترجمة « البيوكرافي» و تجتذب اليها حتى العلماء و الفلاسفة و النفسيين بعد ان شق عليهم الوصول الى قرائهم عن طريق ما درجوا عليه من تأليف اكاديمي موضوعي يثير السأم و يستعصى على الفهم السريع للكافة، التي بدأت تتهيأ لتكون عماد سوق المعرفة و الفكر في العصر الحديث.

فذاك « مونتني» لم يستطيع أن (يطعم) القراء فلسفته في مقالات. فاغراهم بها قصصا و هكذا فعل جان بول سارتر الفيلسوف الوجودي وغيرهما.

و لكن، هل امكن لهؤلاء الغرباء الدخلاء على الادب ان يختطفوا هذا الفن الشيق الحي ليسلكوه اداة رخيصة طيعة في فروع اختصاصهم كما يصطنع الصيدلي اقراص الجيلاتين للتحايل على فم المريض؟

كلا، و لا اولئك الذين سفوا بالقصة الى حيث تقرأ في دقيقتين، في الباص أو على مائدة الشاي أو في الصف الطويل امام شباك السينما!

ولا السينما و التلفزيون وآلة التصوير، والرحلات و الصحف، و المجلات الدورية، و السياسة، و الاعلان، لم تستطع ان تهزم القصة الادبية المحض التي بدات كما يقول سيمنون تتحفز لتحتل مكانها المرموق و تكون حاجة و معولا لعصرنا و للعصر الذي سيليه.

فما هي هذه القصة المحض التي شق تعريفها على جورج سيمنون؟ لنقرأ ما كتبه الكاتب الفرنسي « لوريس» عن القصة فنتبين حدودها بالتقريب:

يقول لوريس:

« لو اتبعنا طريقة فاليري في تقويم الشعر و النثر و قلنا: ان كل أثر يصير الى الموت بعد ان يؤدي مهمته في نقل الفكرة هو « نثر» . وكل اثر يبقى خالدا في (القالب و الشكل) الفني الذي صب فيه هو « شعر» ،

لكان عندنا قصص شعر و قصص نثر. فيكون (بروست) و (جيروود) و (كولت) و (آراغون) و (أناتول فرانس) و (شاتوبريان) ، شعراء. و تكون مؤلفات بيير بنوا نثرا، كما قد تكون الصورة تصويرا فوتوغرافيا رخيصا أو لوحة زيتية في متحف اللوفر.»

و القصة شكل و موضوع كما يقولون. ولكن أيهما الجدير بالقصة الادبية المحض؟ و ايهما الاصل؟ يرى لوريس ان (الشكل) هو الأصل و ما الموضوع غير ذريعة و عذر.

و هذا دليله:

« لقد نقل رهط الفنانين الايطاليين في عصر النهضة كل آثارهم الرائعة عن بضع صفحات من التوراة و كتاب بلوتارخ. و اكتفوا في اغلب الاحيان برسم « العذراء و الطفل» . و خلدوا جميعا. و هكذا كان يكفي « طبق فاكهة» واحد ليرسم عنه « شاردن» و « سزان» روائعهما. و من ثم، ألم يكتب عشرات الروائيين و القصاصين في موضوع واحد؟ او لم تخلد قصصهم بالرغم من ذلك؟»

« ان روعة القصة ليست في تسجيلها للواقع الخارجي كما هو و حسب. بل في عرضها لهذا الواقع « بشكل» جديد. و القصة الجيدة هي التي « تشبه» مؤلفها فقط. فلوحة « أوليمبيا» (تشبه) الرسام « مانه» ، قبل أن تشبه النموذج الذي رسمت عنه.»

و ثمة شيء آخر يضيفه لوريس الى رأيه هذا. وهو:

« القصة تتوقع من القارىء كما تتوقع من كاتبها، سعة الافق و الحساسية و حب الانسانية. و القراء الرديئون كالكتاب الرديئين، كثر.»

ولنسمع اخيرا الكلام الرائع الذي يقوله « مالارمي» عن القصة التمثيلية و هو يتسائل مبهورا:

« لماذا أنصت بشغف لكلام خادم، أو رجل سكير، أو أبله في قصة بارعة. بينما أنا لا أعيرهم أي اهتمام في الحياة العامة و لا أحب سماع حديثهم؟» .

و .. « لماذا ياترى أحبس نفسي ثلاث ساعات كاملة مع أشخاص لست مستعدا لتناول الطعام معهم على مائدة واحدة؟»

انه و الحق لسحر الرائعة الادبية في عصر القصة.

و بعد ...

فهذه روائع من الادب المنهجي الحديث. قرأها الملايين من سكان الارض، كل في لغته. فعمرت قلوبهم و زادت معرفتهم بسيل الحياة المتدفق من حولهم، و ينبوع النفس التي تنطوي عليها جوانحهم، و بالآمال الملونة التي تداعب قلوبهم و أخيلتهم.

و لقد أختيرت فصول الكتاب من هنا و هناك، و ترجمت بدقة، و بعناية، و بوسواس كثير، عن كبار كتاب العالم. و أضيفت اليها نبذ من حياة المؤلفين و مكانتهم الادبية في أوطانهم، و في المحيط العالمي. مع تعريف موجز بأساليبهم في الكتابة و اتجاهاتهم الفكرية و الادبية، والمدى الذي برزوا فيه منها.

و المؤمل في الكتاب أن يكون فاتحة لسلسلة من الكتب المترجمة من نفس الطراز و المستوى، ان قدر له

أن يكسب رضى القراء و يقف على قدميه.

علي اللقماني

بغداد
٥ نيسان ١٩٥٦م

جون كالزورثي (١)

من أبرز كتاب الانكليز في القرن العشرين. ولد سنة ١٨٦٧م. و درس القانون و اشتغل بالمحاماة. و لكنه مال الى الادب و الكتابة. و بلغ القمة في تأليف الدراما و الكوميدي و نشر عدة مؤلفات. و ترجمت روائعه الى أكثر اللغات الحية. و نال بعضها شهرة عالمية واسعة خلدتها جنبا الى جنب مع التراث الكلاسيكي للادب العالمي.

و اشهر كتب كالزورثي المعروفة في نطاق عالمي قصته Forsyte Saga التي اعتبرت ادق و اصدق تسجيل لجو الحياة العائلية في المجتمع الانكليزي. و قد علق الناشر في الطبعات الاخيرة المصورة من القصة بقوله « لم يعد سرا ان القصة سرد لواقع حياة المؤلف العائلية نفسه» .

ومن كتبه « كوميديا حديثة» و « نهاية الفصل» و « الزهرة السوداء» و « للايجار» وعشرات غيرها.

و نشر في سنة ١٩٢٥م مجموعة قصصه الصغيرة في كتاب اسماه Caravan و نال كالزورثي جائزة نوبل للآداب. و كانت اذ ذاك تبلغ تسعة آلاف جنيه و قد قال الناشر في مقدمة كتابه Caravan ان « المؤلف أفلح في تبديد هذه الثروة كليا في عصر اليوم الذي تسلمها فيه» .

يمتاز اسلوب كالزورثي بالواقعية الواعية المتقصية. و اللغة الرصينة المترفعة. و التحليل الدقيق للشخصية الانسانية. و الصبر الجميل على تعقب دقائق هذه الشخصية. في كل صغيرة و كبيرة ليجلوها حية ذات سحر و نفوذ. و حينما مات سنة ١٩٣٣م افتقده ملايين الناس من قراء كتبه في العالم.

اختيرت هذه القصة وترجمت مجموعة Caravan للناشر Heinemann

---

(١) John Galsworthy

«شجرة التفاح و الأغاني و الذهب»

(اغنية اغريقية)

في يوم الذكرى الفضية لزواجهما، خرج « فرانك آشرست» و زوجته في سيارتهما يتنزهان في المروج المجاورة و في نيتهما ان يتوجا احتفالهما بالذكرى، بالمبيت في « توركي» حيث التقيا اول مرة.

وكانت الفكرة من « ستيلا» زوجة اشرست؛ وهي من يومها شاعرية الطبع رقيقة الاحساس. واذا فقدت منذ زمن، بعد الثلاثة و الاربعين عاما التي سلختها من عمرها فتنة عينيها الزرقاوين و نعومة بشرتها الوردية الجذابة التي اسرت قلب آشرست منذ ست و عشرين سنة خلت، فانها لم تزل زوجة وفية ذات جمال و رقة.

و كما كانت فكرة الخروج الى هذه النزهة الشاعرية من ستيلا، كانت هي ايضا صاحبة الراي في اختيار مكان للجلوس عند هذه البقعة الجميلة من المرج حيث يبدو لهما كثيب منحدر الى الشمال و ينتصب امامهما صف ضيق من اشجار الزان و خشب الغاب في المرج الاخضر الزاهي، الى اليمين. وقد انبث، هنا و هناك بضع اشجار سامقة من الصنوبر، و من ورائها الطريق الضيق الذي يفصل المرج عن اول اكمة كبيرة في المنطقة.

كانت، في الواقع، تبحث عن بقعة ملائمة لتناول الغداء. فآشرست لا يهتم شخصيا بشيء. و قد ترك لمشاعرها الرومانتيكية المرهفة ان تكتشف هذه البقعة الساحرة التي تطل من جهة على الوادي السحيق، و تتطلع من الجهة الثانية الى مشارف المرتفعات المعشوشبة في المرج، والتي تعج برائحة الليمون عند أصيل شمس أبريل.

و كانت بقعة ملائمة حقا لرسم المناظر الطبيعية الفاتنة بالالوان المائية.

و جذبت ستيلا صندوق ادوات الرسم و نزلت من السيارة و من ورائها زوجها فرانك آشرست و هي تقول:

- « أليس مكانا جميلا يا فرانك !»

كان آشرست كهلا ملتحيا في الثامنة و الاربعين من عمره. و قد خط الشيب فوديه، فبدا في شكله و قسمات وجهه أشبه بالشاعر شيللر؛ فارع القامة، طويل الساقين؛ في عينيه الرماديتين بقايا أحلام بعيدة، صموتا هادئا منشغلا بنفسه.

و نزل من السيارة يحمل سلة الطعام وراء زوجته.

و استدارت ستيلا و هي في اول جولتها خلال الاعشاب تنثر أعجابها على مناظر الطبيعة هنا و هناك و صاحت فجأة:

- « أوه، يا فرانك. أنظر! هذا قبر!»

و عند حافة الطريق، و تحت جذع شجرة منبثقة من قمة الكثيب رأى آشرست مسطحا ضيقا من الملاط بمساحة ستة اقدام لقدم واحدة، تعلوه عند الرأس قطعة من الصخر و كأن يدا مجهولة زرعت عند حوافيه بضع شتائل من زهور البرية الحمر. و لم تجد الصخرة الصغيرة فوقه من يكتب عليها شيئا.

و تطلع آشرست الى القبر. و استيقظ الشاعر في اعماقه:

« قبر منتحر، عند مفترق الطرق! أى قبر بسيط جميل! ينعم في ثراه الرطب مخلوق خرافي مسكين

يحسده الراقدون في مقبرة الوجهاء، ذات الصخور المنقوشة المزخرفة، على السماء الشاسعة من فوقه .. و صلوات العابرين في الطريق.»

ثم ابتعد بضعة اقدام و نشر مفرشا عند حائط قديم فوق الاعشاب. و وضع سلة الطعام الى جانبه.

انه يعلم أن زوجته ستنشر عما قريب أدوات رسمها و تجلس لترسم صورة لهذا المنظر الطبيعي. و ستطلب طعاما – و اخرج من جيبه كتاب هيبوليتاس و كان قد أنهى فصل « سيبريانا الهة الحب» و انتقامها .. ولكنه ترك الكتاب جانبا و اخذ يتطلع الى السماء و يرقب قطع الغمام البيض السابحة في بحر من اللازورد الداكن في صفحة السماء. و أحس بالفيلسوف يتململ في نفسه .. و بدأ يرسم في خياله، و في يوم ذكرى زواجه الفضيه، صورة للانسان المترفع المتشكك، يصحح بها النموذج الناقص الذي خلق على مثاله ..

« و قد لا يخلو هذا الانسان المترفع المتشكك من دخيلة فيها خيوط من النهم و الاشتاء و التلف.»

« و التلف!»

« و هل للمرأة نصيب في هذا التخطيط!»

« من يدري؟»

« و لعل الرجل، إذ يفتح الصمام لرغباته حبا في التنويع، و يطلق العنان لشهواته الثائرة في مخاطر و مغامرات جديدة لا يكون مندفعا بالحرمان. بل بالجانب المعاكس له. بالشبع و التخمة.»

« و أي جدوى من كل ذلك؟ لقد كتب على هذا الانسان المتمدن أن يكون حيوانا رديء التكوين! و لن تكون له جنة من اختياره .. جنة فيها:

« شجرة تفاح، و أغان ذهب» كما تقول الاغنية الاغريقية الجميلة، ما لم ينقب عن الجمال في الفن الخالد.»

فقد تمر بالحياة لحظات من الجمال و النشوة الخاطفة لا يبقى منها في اليد الا بقدر ما تبقى من سحابة صيف فوق وجه الشمس. و ليس كالفن الرفيع شيء يقتنص هذه اللحظات السعيدة فيبقيها في قبضته على مرّ الدهور.

و صاح طائر ككم من على غصن شجرة .. فتنبه آشرست الى نفسه. و بدا له ان معالم الجمال في هذه البقعة الزاهرة من المرج لم تكن غريبة عليه. و خيل اليه لنه يعرف المنطقة. فهذا الكثيب الاخضر. و ذاك الشريط المتعرج من الطريق. و الحائط القديم وراء ظهره ... و بدأ ينبش في ذهنه، الماضي الدفين و اذا به يتذكر. و اذا به يعود بذاكرته الى ست و عشرين سنة خلت قبل اليوم، وفي نفس هذا الفصل من السنة .. حين ترك بيتا ريفيا هنا و لم يعد اليه قط .. و انغمر الادكار.

١

كان يوم أول مايو حين خرج فرانك آشرست و رفيقه روبرت غارتن بعد أن أنهيا آخر مراحل دراستهما في الكلية، في رحلة على الاقدام الى « جاكفورد» . و قبل ان يصلا الى جاكفورد بسبعة كيلو مترات أحس فرانك بان ساقيه لم تعودا قادرتين على حمله و مواصلة الرحلة. فجلس الصديقان بضع دقائق على دكة الى جانب الطريق يستريحان. و لكنهما ما ان عادا لمواصلة السير حتى احس فرانك بأنه لن يستطيع المشي أكثرمن خطوات قليلة أخرى. و أيقن روبرت أن مواصلة الرحلة في ذلك اليوم من غير المستطاع.

كان روبرت غارتن غريب الاطوار يحمل آراء خاصة تدل على نزعة حوشية بخلاف آشرست الفتى الانيس الذي يمجد البطولة و يحمل روحا عاطفية و يحب الشعر و الجمال.

وقال روبرت:

- « حاول أن تجر قدميك قليلا، علنا نصل الى مزرعة قريبة نبيت فيها ليلتنا»

و وقع بصر الرفيقين على فتاة تحمل بين يديها سلة و تسير عند حافة الكثيب. و كانت ترتدي قلنسوة من الطراز السكوتلندي القديم و ثوبا قديما و حذاء باليا. و بدت السماء الزرقاء ورائها تعكس تخطيطا جميلا لقوامها الرشيق. و كشفت شفتاها الحمراوان عن صفين من الاسنان الناصعة. كانت فتاة قروية جميلة. و بالرغم مما بدا من تغضن يديها بالعمل المتواصل الا ان العينين السوداوين الساحرتين في وجهها اجتذبتا الفتى المثالي آشرست. فصاح في نفسه دهشة:

« ما اجملها!»

و دنت الفتاة منهما قليلا. و حين لم يكن على رأس فرانك قبعة ليرفعها، رفع يده اليها بالتحية و قال:

- « هل بامكانك أن تدلينا على مزرعة قريبة نقضي فيها ليلتنا هذه. فقد أصيبت ساقي و أخذت أعرج كما ترين؟»

- « ليس من مكان غير مزرعتنا القريبة يا سيدي»

و ارسلت الفتاة جملتها بلهجة رصينة و بدون استحياء. و كان صوتها جميلا ناعما متهدجا.

- « و أين تقع مزرعتكم؟»

- « على مقربة من هنا ياسيدي»

- « هل سيكون في مقدوركم أيواؤنا هذه الليلة؟»

- « أوه. أعتقد أنه من الممكن»

- « هل سترينا الطريق الى هناك؟»

- « نعم يا سيدي»

و جرّ فرانك قدميه و تولى روبرت محادثة الفتاة.

- « هل أنت من ديفونشاير؟»

- « كلا يا سيدي»

- « من أين اذن؟»

- « من ويلز»

- « انك غريبة هنا اذن! و المزرعة ؟»

- « انها لعمتي يا سيدي»

- « و عمك؟»

- « انه ميت»

- « من الذي يزرعها اذن؟»

- « عمتي و ابناؤها الثلاثة»

- « هل تقيمين هنا منذ زمن بعيد؟»

- « سبع سنوات»

- « أراضية من حياتك هنا؟»

- « لست أدري يا سيدي»

و سألها آشرست فجأة:

- « و كم عمرك؟»

- « سبع عشر سنة يا سيدي»

- « و ما أسمك؟»

- « ميجان دافيد»

« صديقي هذا روبرت غارتن. و أنا فرانك آشرست. كنا في رحلة على الاقدام الى جاكفورد»

« من المؤسف ان قدمك تؤلمك»

و ابتسم آشرست، و أضاءت الابتسامة وجهه.

و لما خرجوا من المرج و نزلوا الطريق الضيق، وجدوا انفسهم فجأة أمام المزرعة حيث يقوم بيت قروي

قليل الارتفاع و طويل نسبيا، مبني بالصخور وسط مزرعة يسرح فيها الدجاج و الخنازير و فرس عجوز. و من ورائه أكمة معشوشبة نثرت فوقها بضع زهيرات من السوسن السكوتلاندي. و في مواجهة المزرعة مجموعة من أشجار التفاح مثقلة بالبراعم المتفتحة و يجري بالقرب منها جدول صغير ينتهي بحقل بعيد مترامي.

و كان هناك صبي صغير زائغ العينين يرعى أحد الخنازير. و عند باب البيت و قفت امرأة، ما ان رأتهم حتى تقدمت نحوهم.

- « انها عمتي السيدة ناراكومب»

و كان ل« عمتي السيدة ناراكومب» عينان داكنتان سريعتا الحركة و رقبة دقيقة.

و بادرها آشرست:

« لقد التقينا بابنة أخيك في الطريق. و قد تراءى لها أن بالامكان ايواؤنا هذه الليلة»

و تفحصتهما السيدة ناراكومب قليلا ثم قالت:

- « أجل! يمكنني ايواؤكما اذا قنعتما بغرفة واحدة لكليكما .. ميجان! أعدي الغرفة الاضافية للسيدين و هيئي لهما وعاء من القشدة»

- « أظنكما بحاجة الى شاي ساخن»

و مرقت الفتاة من دهليز تعلوه قمرية من فروع اللبلاب المتشابكة.

- « تفضلا الى الردهة. لتأخذا راحتكما. هل أنتما طالبا مدرسة ؟»

- « كنا يا سيدتي. و قد أنهينا دراستنا أمس فقط»

و كانت « الردهة» حجرة طويلة نسبيا. رصفت أرضها بالطابوق تتوسطها منضدة بسيطة بدون غطاء و حولها بضع كراسي و مصطبة. و كان جليا أن الغرفة معزولة لا يدخلها أحد. فقد كانت نظيفة مجلوة تماما.

و ألقى آشرست نفسه على المصطبة و أمسك ساقه بكلتا يديه. و نظرت اليه السيدة ناراكومب:

و سأل:

- « هل هناك جدول يمكن السباحة فيه؟»

- « في نهاية البستان جدول ماء. و لكنه قليل الغور لا يفي بالسباحة»

- « كم عمقه؟»

- « قدم و نصف»

- « بديع! من أي طريق؟»

- « في آخر البستان من الباب الثانية، على اليمين. عند شجرة التفاح الكبيرة الوحيدة القائمة هناك»

- « سوف نذهب!»

- « سيكون الشاي جاهزا عند عودتكما»

و لم يكن الجدول ليتسع لاكثر من واحد، فدخل روبرت يستحم بينما وقف فرانك ينتظر نوبته تحت شجرة التفاح الكبيرة الدانية و قد أغرقت ببراعم الربيع. و هز مشاعره المنظر الساحر فتذكر) ثيوقراط و النهر، و القمر(و الاغصان، و هي تميد مع النسائم. و الفتاة و عينيها السوداوين النديتين. و ازدحمت في رأسه الصور و الاخيلة حتى بدا كأنه لا يفكر في شيء بعينه.

* * *

٢

و تلمظ فرانك و رفيقه في تلذذ، الشاي الساخن الشهي الذي أعدته لهما السيدة ناراكومب. و بعد فترة أخرى تناولا عشاءهما من البيض و القشدة و المربى و خبز الارياف و استراحا ساعة ثم أويا الى فراشيهما.

لقد كان من عادة آشرست أن ينام مبكرا. و لكنه في تلك الليلة أحس برغبة في أن يبقى مستيقظا قليلا. فأشعل غليونه و انطرح في فراشه و فتح رئتيه لشذى زهور البرية التي كان يحملها النسيم الى الغرفة من المرج المجاور عبر النافذة. و استعاد في الخيال الصور التي مرت به ذلك النهار. و آخرها منظر الصبية الجميلة و هي تخرج من المطبخ حاملة كوزا من عصير التفاح للضيفين. و تهادت الى سمعه زقزقة عصفور نافر أدركه الليل متأخرا عن عشه. و بدت له وراء النافذة هياكل الاشجار القريبة و قد استعاضت من ضوء النهار القوي لونا فضيا باهتا تحت اشعة القمر. و خطف وطواط جذل يناجي نفسه « جيب. جيب. جيب» . و فجأة سمع من وراء ظهره مواء قطة، و ضحكة طفل، و وقع أقدام حذرة. ثم صوتا ناعما متهدجا يقول:

« كلا يا ريك! لا يمكن أن تضع القطة في السرير.» و تلتها صفعة ناعمة. فضحكة رقيقة. فظلام و سكون.

و أغمض الفتى عينيه و أغفى و الصوت الناعم المتهدج يتردد في سمعه.

و في صباح اليوم التالي اكتشف فرانك أن أوجاع ساقه لم تخف. بل ازدادت قليلا عما كانت عليه بالامس. و بدا له أن الرحيل مستحيل. و من جهة أخرى كان روبرت مضطرا الى الحضور في لندن غدا لانتهاء اليومين، و هما أمد الرحلة الذي حدده مع ذويه من قبل.

و بعد أن ودع روبرت صديقه و غمزه بضحكة ساخرة أثارت غضب فرانك، عاد الفتى عند الظهر ممسكا ركبته بكلتا يديه، و اقتعد كرسيا خشبيا أخضر وضع له في الحديقة. و أمضى ساعات يومه يتلقى شذى زهور الشبو و القرنفل و يستمتع بدفء الشمس و يدخن غليونه و يتطلع فيما حوله.

ليس هنالك ما هو أبلغ في التعبير عن الحياة الطالعة المتدفقة من بيت ريفي في فصل الربيع. حيث يستطيع الانسان أن يرقب عن كثب مخاض الطبيعة الجاثمة في هذا الكون. ويرى بعينيه مولد الجمال و الفتنة. ففي كل مكان براعم تتفتح و افراخ تكسر بيضها و تزقزق. و فلاحون يموجون و يتهيئون للحياة الجديدة المتفجرة عليهم من حجب الغد. و كان فرانك يلحظ كل هذا و هو غارق في الاستمتاع بالسكون الرائق من حوله. و قلبه متفتح و ذهنه شارد في الطبيعة الصاحية، و تحت قدميه الدجاج يبحث الارض و يزق فراخه آمنا وادعا.

و كانت السيدة ناراكومب و ميجان يمران عليه بين حين و آخر طوال النهار. و تحدث الى ميجان مرة عن صديقه غارتن و عما قاله لها من أنها من سلالة شعراء ويلز.

- « و هل هذا صحيح ياسيدي. هل ممكن أن أكون ابنتهم؟»

- « كان يعني بأنك الفتاة التي كانوا يتغنون بها في أشعارهم»

- « كان يمزح بلا شك، أليس كذلك؟»

- « هل تصدقينني اذا قلت شيئا؟»

- « أوه. أجل!»

- « أرى أنه كان صادقا في قوله»

- « و ابتسمت الفتاة»

و فكر آشرست مع نفسه « انك لجميلة حقا»

و تركته ميجان وهو يحتسي الشاي الذي أحضرته له. و ظل يفكر. و يناقش نفسه: « هل ستظن الفتاة بأنه يحاول الايقاع بها؟ حاشاه أن يفعل ذلك. انه من ذلك النوع من الرجال الذين لا يرون في الجمال الا وحيا للبطولة و الترفع!»

و لما حان العصر جاءت الفتاة و عمتها معا و وضعتا اللبخة التي أعدتاها على ركبته المتورمة. و ندت من فم الفتاة آهة شجية و هي تضمد الساق.

و مر من أمامه و هو في مكانه في الحديقة، الكهل الحليق الذي رآه أمس في باب المطبخ و هو يسوق امامه بضع بقرات و من وراءه كلبه. و لحظ آشرست أنه يعرج في مشيته فناداه قائلا:

- « عندكم أبقار لا بأس بها»

- « أجل انها جميلة و حلوب أيضا ... هل تشعر بتحسن في ساقك سيدي»

- « أشكرك. انها تتحسن»

و أمسك الرجل بساقه العرجاء يقول:

- « اني أقدر أوجاع الساق بما عانيته خلال السنوات العشر الماضية»

و أظهر فرانك أمارات من الجزع مواساة للرجل الذي قال:

- « لا تتوجع يا سيدي لسوف يعنون بك هنا فتشفى»

- « لقد وضعوا عليها ضمادا حارا جيدا»

- « اجل. انه من صنع الصبية. انها فتاة طيبة و لها معرفة بالزهور و خواصها في شفاء الامراض. لقد كان لأمي معرفة بالزهور أيضا»

و عقب فرانك في نفسه

- « لها معرفة بالزهور! انها هي لعمري زهرة من الزهور»

و بعد العشاء جاءته ميجان تقول:

- « ان عمتي تطبخ الليلة حلويات مايو. أتحب الذهاب الى المطبخ لمراقبة الطبخة؟»

- « بالتأكيد! على شرط أن أمشي بنفسي هذه المسافة»

و نهض من مكانه متحمسا متسرعا. الامر الذي جعل قدمه تخور و تتلوى. فاضطر الى التعلق بالذراع التي مدتها اليه الفتاة فورا، تفاديا من السقوط على الارض.

و ندت صرخة مقتضبة من ميجان و شحب لونها. و قدمت له كلتا ذراعيها، ذراعين صغيرتين متغضنتين تلوح فيهما السمرة. و غالب اللهفة في تقبيلهما فأمسك بهما و مشى. و اقتربت منه و أعطته عاتقها فاتكأ عليه و مضى خارجا. و مشى المسافة من مكانه الى المطبخ. و في طول الطريق بدا له أنه لم يلمس شيئا أرفق و أنعم له من هذا العاتق الذي يتعلق به الآن. و قبل أن يلج باب المطبخ التقط عصاه و ترك الفتاة.

* * *

٣

و طعم فرانك في ليلته نوما هانئا. و حينما استيقظ في الصباح وجد ساقه قد شفيت و زال عنها الورم و عادت الى حالتها الاولى. فأحس بانه يقوى على سير الهوينا بدون عصا.

و استأنف الجلوس في كرسيه الاخضر في الحديقة و أخذ يتلهى بقرض الشعر.

و عند العصر هرع اليه صبيان البيت ريك و نيك و غيرهما في أثناء فراغهم من الدروس بعد ظهر يوم السبت و أخذوه الى الجدول و هم يضحكون و يمرحون و يثرثرون اذ آنسوا عنده ميلا الى المرح و الضحك و الثرثرة.

و جلس فرانك على صخرة عند حافة الجدول و أخذ يتلهى بالانصات الى زقزقة العصافير و تغريد الككم تاركا الصبيان من حوله يعبثون و يهرجون و يصخبون. و فجأة جاءه الصبي « نيك» يعدو و يلهث و يصيح:

- » لا تجلس هنا. ان شيطان الغجر يجلس على هذه الصخرة»

- « أي شيطان؟»

- « لست أدري. و لم أره قط بنفسي. و لكن ميجان تقول ان شيطان الغجر يجلس هنا دائما و قد رآه العم جيم مرة في الظلام و هو جالس فوق هذه الصخرة يعزف على كمانه، في الليلة التي مات فيها أبي برفسة حصان»

- « و أي لحن كان يعزف؟»

- « لست أدري»

- « و كيف كان شكله؟»

- « كان أسود. و يقول العم جيم أنه كان يشبه الهواء. انه شيطان حقيقي. و لا يأتي في كل ليلة»

و استدار الصبي الصغير ذو العينين الزائغتين و هو خائف يقول:

- « هل تظن أنه يريد أن يأخذني بعيدا من هنا؟ ان ميجان تخاف منه. و لكنها لا تخاف منك أنت؟»

- « و كيف عرفت ذلك؟»

- « لقد صلت من أجلك ليلة أمس، عندما ذهبنا للنوم»

- « و هل سمعتها أيها الشيطان؟»

- « أجل. حينما كنت أغمض عيني لانام سمعتها تزمزم بين شفتيها و تقول هامسة:

« اللهم احفظنا جميعا. و احفظ السيد آشس أيضا!»

و سرح آشرست في أفكاره. و لم يعد ينصت لثرثرة نيك في حديثه عن صيد الارانب و قتل الضفادع و كون ميجان تكره ذلك ..

« اللهم احفظنا جميعا. و احفظ السيد آشس ايضا!»

و عدا نيك الى الجدول حيث رشاش الماء و ضجيج صحبه الاطفال و صخبهم.

و في العصر، عندما جاءت ميجان بطبق الشاي سألها فرانك:

- « ما هو شيطان الغجر يا ميجان؟»

فنظرت اليه في وجل ثم قالت هامسة:

- « انه يجلب الشؤم و السوء»

- « أوه! و هل تؤمنين بالاشباح؟»

- « لست أتمنى أن أراها ابدا»

- « انك لن تريها بالتأكيد. فليست هناك أشباح. أما ذلك الشيء الذي رآه جيم العجوز فلم يكن قط غير ظبي هائم»

- « كلا! ان في هذه الصخور شياطين. انها أرواح أولئك الذين ماتوا من قديم الزمان»

- « و على أي حال، فليسوا من الغجر. ان أولئك الناس ماتوا قبل ظهور الغجر على الاقل»

- « انهم نذر سوء كلهم!»

- « لم؟ حتى اذا افترضنا وجودهم فأي بأس فيهم و أي سوء؟»

- « انهم وحشيون فقط، كالارانب. و زهور البرية وحشية أيضا. و شجرة الشوك هذه لم يزرعها احد. فما الذي يخيفك منها. سوف اذهب في الليل لملاقاة شيطانك هذا و سأتحدث اليه قليلا»

- « أوه. كلا! أوه. كلا!»

- « أوه. نعم. سوف أذهب و أجلس على صخرته»

و ضربت الفتاة يدا بيد و هي تقول جزعا.

- « أوه. أرجوك. لا تفعل!»

- « لماذا؟ و ماذا يهم لو حدث لي شيء»

و لم تجب و عاد هو يقول في لهجة أسف.

- « و لكني أخشى ألا أجد وقتا للذهاب اليه. فاني لابد راحل عما قريب»

- « أبهذه السرعة؟»

- « ان عمتك لن ترضى ببقائي مدة أطول»

- « أوه. بالعكس. غالبا ما يكون عندنا نزلاء وقت الصيف»

و سدد فرانك نظرته الى عيني الفتاة مباشرة و سألها:

- « و أنت؟ هل تحبين أن أبقى؟»

- « أجل»

- « سوف أصلي من أجلك هذه الليلة!»

و احمر وجه الفتاة، و عقدت حاجبيها و تركت الغرفة على عجل.

و جلس فرانك يلعن نفسه على الحماقة التي ارتكبها فاساء الى الفتاة. و لكأنه داس بحذاءه الثقيل باقة من الزهور الندية المتفتحة. ألم يكن غير حضري حمار كرفيقه روبرت غارتن، بعيد عن فهم نفسية الفتاة؟

* * *

٤

قضى آشرست الاسبوع التالي يؤكد شفاء ساقه. و يجوس في نزهات قصيرة خلال المزارع المحيطة بالمنطقة. و قد فتح الربيع أمام عينيه آفاقا جديدة من المعرفة. و في نشوة من سحر الربيع كان يتطلع الى البراعم الوردية المنبثقة فوق أشجار اللوز و من ورائها السماء الزرقاء و الشمس الذهبية المتلألئة و نسائم المرج الرقيقة تهب من خلال الاغصان و الفروع المتشابكة من الكثيب، فتداعب شتائل الزنبق .. و يترك أذنيه تتسقطان أغاريد الككم و ضحكات العقعق. و طقطقة اللقلق من احدى الذرى في المرج البعيد.

كان يستلقي الساعات الطويلة ليتحقق من أن هذا الربيع لم يشبه أي ربيع مرّ به خلال أعوامه المنصرمة. ان الربيع في هذه المرة ينبثق من ذاته هو. انه ربيعه هو. ان شيئا ما في داخله يتفتح و ينمو مع الطبيعة و يغني لطير الككم و يهتز مع براعم التفاح، ها هنا، في أحضان الطبيعة الزاهرة المتفتحة.

و كان طوال يومه لا يلتقي بأفراد الاسرة الا لماما. فهذه ميجان التي تمر عليه الفينة بعد الفينة، منشغلة في أعمال البيت لا يكاد يجد عندها متسعا للثرثرة و الحديث.

أما في الليالي فكان يضع كرسيه قرب نافذة المطبخ و يجلس و يتحدث الى العم جيم و السيدة ناراكومب.

و لم يتفق أن شاركت ميجان في أحاديثهم هذه. اذ كانت تشغل نفسها بابرتها و قماشها فاذا رفع فرانك رأسه فجأة اليها أبصر عينيها النديتين شاخصتين الى وجهه في اشتياق و نجوى.

و في احدى الاماسي و كانت أمسية الاحد، حينما كان مستلقيا على كرسيه في المرج يستمع الى زقزقة شحرور صغير، و ينظم شعرا في الحب رآى باب المزرعة تنفرج بغتة و بسرعة، و تدخل منها الفتاة تلهث. و بعدها بقليل دخل من ورائها أحد فتيان القرية بقهقهة. و كان ظاهرا أنه كان يعدو خلفها من مسافة بعيدة.

و على بعد عشرين ياردة انتهت المطاردة و وقف الاثنان في مواجهة بعضهما غير ملتفتين الى الغريب الجالس في كرسيه الاخضر على مقربة منهما.

و حاول « جو» أن يحتضن الفتاة و يضمها الى صدره و لكن ميجان كانت تدافعه و تذوده عن نفسها و تكافح بكل قواها. و لحظ فرانك من مكمنه آثار الغضب و السخط الشديد على وجه الصبية.

ومع أنه كان يعلم أن « جو» من أقارب العمة ناراكومب الا أن السخط الذي بدا على وجه الفتاة أثار استياءه. فهب من مكانه واقفا. و لما أحست الفتاة وجوده بغتة داهمها الخجل و استدارت و اختفت وراء احدى الاشجار.

أما « جو» فدمدم في غضب و انسحب الى ناحية و اختفى بعد لحظات.

و تقدم فرانك ببطء نحو مخبأ الصبية. فرآها هادئة ساكنة تعض في حنق على شفتيها القرمزيتين. و قد نشر شعرها الاسود الناعم فوق وجهها و أطرقت بعينيها الى الارض .. كانت أجمل من أي وقت رآها فيه قبل الان. قال آشرست:

- « أني اعتذر كثيرا لظهوري المفاجىء»

فنظرت اليه الفتاة بعينيها الواسعتين، ثم حبست أنفاسها في صدرها. و أدارت رأسها. و اتجهت نحو البيت:

و صاح فرانك:

- « ميجان!»

و لكنها استمرت في سيرها و لم تلتفت. و قفز الفتى و أمسك بذراعها و أدارها ناحيته و قال برقة:

- « ألا تردين عليّ بكلمة؟»

- « لماذا تعتذر اليّ؟ لست أنا التي تعتذر لها»

- « لمن كنت أوجه اعتذاري اذن؟ لجو؟»

- « لست أدري كيف يجرؤ على مطاردتي؟»

- « انه يحبك بلا ريب! أليس كذلك؟»

و ضربت الفتاة الارض بقدمها. و ضحك آشرست و قال مداعبا:

- « هل تريدين أن أحطم لك أسنانه؟»

و صاحت الفتاة بانفعال مفاجىء:

- « أوه. انك تسخر مني – انك تسخر منا»

و أمسك بها آشرست. و لكنها انكمشت و مالت برأسها الى الوراء حتى اختفى كليا بين براعم التفاح. و رفع يدها السجينة في يده و وضعها فوق شفتيه. و أحس ببطولته و رقته بالنسبة لذلك الفتى الريفي الفظ. و فجأة تراخت الفتاة و عافت الانكماش و اندفعت منتصبة تتطلع اليه من قمة رأسه الى أخمص قدميه. لقد أسكرتها القبلة فمالت بعطفها اليه و اندست بين ذراعيه و قبلها على جبينها. و ارتد عنها وهو يرتجف اذ رأى وجهها يشحب و أهدابها السود تتراخى فوق عينيها و يداها تسبلان الى جانبيها فجأة. فصرخ فيها:

- « ميجان!»

و أخرجها من بين ذراعيه .. و زقزق شحرور في السكون المخيم. ثم أمسكت الفتاة بيده و اعتصرتها الى صدرها، و قلبها. و قبلتها بلهفة. و فرت بين جذوع أشجار التفاح و اختفت من امامه.

و اقتعد فرانك جذع شجرة قديمة مائلا فوق الارض. و أخذ يحدق في غصن البراعم الوردية الذي كان يتوج رأسها قبل لحظات. « ماذا صنع؟ كيف سمح لنفسه أن تنهار بهذه السهولة امام الجمال - و هل كان الربيع؟»

و أحس فضول السعادة و رعشة الانتصار تدب في عروقه. و معها احساس آخر مبهم بالنذر.

« لقد كانت بداية – ماذا؟»

و عضته ذبابة. و خفق شحرور. وغنى ككم. و رمقته شمس الاصيل و هي تتهادى نحو الافق الغربي.

و نهض من جذع الشجرة. و جرّ نفسه خارج المرج يبحث عن الهواء الطلق و السماء الفسيحة. و مضى صعدا في المرج. و من على شجرة دردار خفق عقعق و طار.

« من من الناس لم يحب؟ من ذا يقول انه لم يحب منذ الخامسة من عمره؟ انه هو نفسه سبق له أن أحب مربيته و صحيباته في المدرسة. و لم يكن خليا من الحب يوما ما. و لكن هذا الي يحسه اليوم كان شيئا جديدا عليه. حدثا جديدا بعث فيه احساسا كاملا بالرجولة.»

« لقد أمسك بين أصابعه زهرة من زهور البرية و وضعها فوق شفتيه. أية نشوق وأي انفعال!»

« ما الذي سيصنعه بعد ذلك؟ كيف سيقابلها في المرة القادمة؟ لقد كان لقاؤه الاول باردا مثيرا للاشفاق. ولن يكون اللقاء الثاني مثله!»

« ان قبلاتها الملتهبة على كفيه و حرارة صدرها الخافق تصرخ بحبه»

و أطبق عليه الغسق دون أن يحس به. و بدا صوت الطبيعة يسر في أذنيه:

« هذا هو عالمك الجديد!»

و بقي في مكانه ساعات أخرى حتى أحس بالنسمات الباردة تلسع وجهه. فاتخذ سبيله بين الحشائش و الاعشاب الناتئة و الصخور و الاشواك الى المزرعة. فمر بالمرج الوحشي و دخل البستان.

و أشعل عود ثقاب و نظر الى ساعته. فاذا الوقت قد جاوز منتصف الليل. و كل شيء من حوله غارق في السكون و الظلام. فأمسك متمهلا برتاج الباب و فتحه. و دلف الى فناء الدار الصغير. و تراقصت أمام مخيلته صورة السيدة ناراكومب ذات العيون الداكنة و الرقبة الدقيقة و هي تعض على نواجذها و الصبيان و هم يغمزونه، و « جو» القروي الفظ وهو يتجهم في غيظ و يدمدم في وجهه و القرية كلها، و قد باتت تتناقل القصة و تتندر به. و صديقه روبرت غارتن ذو الضحكة الساخرة، الا العم جيم الذي ينظر اليه برثاء. و كره كل هذا العالم التافه الذي ربط اليه ربطا.

كان البدر قد توسط السماء فوق رأسه. و على ضوء أشعته الفضية نظر آشرست فاذا كل شيء في الفناء حتى الخراف و البقر و الدجاج قد جمده السكون الشامل في مكانه. فسار على مهل و عبر الفناء الى جانب المبنى و التفت الى نافذة غرفة ميجان فاذا هي مفتوحة.

و صاح طائر ليلي خاطفا من فوق الدار. و ردد صيحته السكون العميق الجاثم على الكون الى كل مسافة. و من بعيد كان الجدول الصغير يبعث خريره الموزون الناعم في الفضاء غير آبه بهذا السكون.

و تقدم على رءوس اصابعه الى النافذة. و صاح هامسا:

- « ميجان!»

و برز رأسها. و لكنها سرعان ما ارتدت الى الوراء ثم عادت من جديد و أطلت الى الخارج. و سحب فرانك نفسه خطوات الى الوراء فوق العشب ليتمكن رؤيتها جيدا. فأصطدمت قدمه في الظلام بكرسيه الاخضر في الحديقة. و لكن احد لم يستيقظ. فوضع الكرسي تحت قدميه و كتم انفاسه و صعد عليه و وقف

منتصبا. و مع هذا لم يستطع أكثر من أن يلمس يد ميجان الملتهبة؛ و كان فيها مفتاح المبنى الداخلي الكبير - باردا كالثلج.

كان في مستطاعه أن يرى وجهها في ضوء القمر و يتبين صفاء أسنانها اللؤلؤية من خلال شفتيها. و شعرها المنشور فوق كتفيها.

لقد ظلت الصبية مستيقظة تنتظر عودته و أحس بأصابعها المتغضنة الدافئة تضغط على يده و رأى في وجهها نظرة حائرة ضائعة.

و نعب بوم. و تهادت رائحة زهور الشبو الى انفه. و استرخت أصابعها من يده و ارتدت الى الغرفة.

- « طابت ليلتك يا ميجان!»

- « طاب ليلك ياسيدي!»

و غابت وراء النافذة. و نزل هو واقتعد الكرسي و خلع حذاءه ليتجنب احداث الضوضاء اذا ولج المبنى. و لكنه بقى في مكانه زمنا يستعيد صورة وجهها الباسم و النظرة الحائرة الضائعة فيه. و أصابعها الدافئة و هي تضغط الى يده ذلك المفتاح الكبير البارد حتى احس بقدميه تبتلان فوق الارض الرطبة.

* * *

٥

و استيقظ آشرست غير شاعر بالجوع. و بدا له غرام الامس و كأنه رؤيا غير حقيقية. و كان صباحا ذهبيا تفجر فيه الربيع كله. و كأن عتمة ليلة واحدة كانت تكفي الحقل الواسع لكي يمتلىء بما يسميه الاطفال « فناجين الذهب» . و من نافذته كان يرى براعم التفاح و قد فرشت الارض بالاوراق الوردية البيض في كل مكان.

و غادر غرفته و هو يتحاشى لقاء ميجان. و لكنه ما ان دخلت عليه السيدة ناراكومب تحمل طبق الفطور بدل ميجان، حتى قطب حاجبيه و شعر بالخيبة.

و أحس بان نظرة السيدة في هذا الصباح تحمل مفهوما خاصا.

« هل لحظت شيئا يا ترى؟»

- « قل لي هل سحرك القمر في الليلة المنصرمة فأنساك عشاءك، أم أنك تعشيت في مكان ما؟»

و هز آشرست رأسه و لم يجب.

- « لقد احتفظنا لك به. و لكن توقعت أن تكون في شغل عنه»

« هل كانت تسخر منه بلهجتها الويلزية الغريبة في هذه المنطقة من غرب البلاد؟»

« هل ادركت شيئا؟»

و في تلك اللحظة فكر متحمسا:

« كلا. كلا. سوف أرحل. لن أترك نفسي في مثل هذا الموقف الكاذب»

و لكن، بعد الانتهاء من طعام الافطار بدأ تلهفه للقاء ميجان يزداد على عدد الدقائق. و معه شعور بالخوف من أن أحدا قال لها شيئا فأفسد كل شيء. و تشاءم من عدم مجيئها، و لو للمحة على الاقل.

و في فترة الانتظار و اللهفة، أخرج قطعة الشعر التي نظمها بالامس تحت شجرة التفاح. و كان يتصورها جميلة رائعة. و قرأها ثانية فألفاها تافهة سخيفة. و بدا له الحب الذي وصفه في شعره مصطنعا فيه جفاف و سخف كثير. فمزق الورقة بهدوء و نثر جذاذاتها في أحد الاركان.

« ترى كيف خولت له نفسه أن يصف الحب قبل أن يحس بشفتي ميجان فوق يده؟ ماذا كان يعرف من الحب قبل ان يضم ميجان الى ضلوعه؟ و ماذا يجهل الان بعد أن أحس بأنفاسها الحارة تداعب رقبته و ذراعيه؟»

و أراد أن يقتل الانتظار بالمطالعة. فمضى الى غرفته يلتقط كتابا. و لكنه جمد عند عتبة الباب. و هبط قلبه قي صدره. فقد كانت ميجان في الغرفة ترتب فراش نومه.

و وقف الفتى مستندا الى الباب و هو يتطلع اليها. و فجأة طار قلبه جذلا اذ رأى الفتاة تنحني على وسادته و تضع رأسها في موضع رأسه الغائر في الوسادة و تترك قبلة طويلة. و رفعت الوسادة، و قد عز عليها أن

تزيل أثر وجناته على سطحها الغائر فأعادتها مكانها ثانية و استدارت الى الوراء.

لم يكن يريدها تدرك انه استرق النظر اليها و رآى تجربتها العاطفية في وسادته، و لم يكن بمستطاعه أن يتسلل من باب الغرفة دون أن يلفت نظرها اليه.

- « ميجان!»

و رفعت يديها الى وجنتيها المحمرتين. و لكن عينيها ظلتا مشدودتين الى وجهه. و لم يكن قد أدرك قبل الان ذلك العمق و الصفاء و التفاني في تينك العينين النديتين البراقتين.

وردد:

- « كم كان جميلا منك أن تنتظري عودتي في الليلة الماضية؟»

و لم تقل شيئا. فمضى هو يقول:

« كنت أجوس خلال المرج هنا و هناك. و كانت ليلة جميلة – لقد – أتيت لآخذ كتابا»

و تذكر القبلة التي طبعتها على الوسادة، فدار رأسه. و تقدم نحوها. و لمس عينيها بشفتيه و جال في خاطره و هو في غمرة حبه، أنه غارق فيها. لقد لقيها بالامس لقاء مفاجئا بلا حساب. أما الان فهو يغرق فيها عالما مدركا. و استرخى رأس الفتاة على فمه و تقلب في وضعه حتى التقت الشفاه في أول قبلة حب حقيقية مدركة – غريبة رائعة – و بريئة. خفق لها فؤاده في دعة و استسلام.

و همس في أذنها:

- « ميجان! عندما يأوي الجميع الى مضاجعهم في هذه الليلة، تعالي الى شجرة التفاح الكبيرة! عديني!»

و ردت هامسة:

- « سآتي! أعدك»

و للمرة الثانية اضطرب فرانك حينما لمح الشحوب الصارخ يعلو وجه الفتاة. فنزع يديه عنها و تركها مسرعا على السلم. و هرع الى كرسيه الاخضر بدون كتاب كما غادره. و جلس ينظر الى الفراغ أمامه. يتنازعه الانتصار و التأنيب.

« لقد قبل حبها و اعلن لها حبه.» و لم يدرك كم مضى عليه و هو في جلسته يتطلع الى الفراغ أمامه. و لم يعد الى نفسه الا عندما شاهد « جو» يقف خلفه على بعد خطوات.

كان جو يجفف العرق المتصبب من جبينه و ينفض عن نفسه الغبار و يسحب انفاسه بصوت مسموع. و قد علت وجهه حمرة كحمرة الشمس و هي تغور في أفق الغروب. و كانت شفتاه الحمراوان مفتوحتين و عيناه المتعبتان مسمرتين في آشرست.

و قال آشرست بتهكم:

- « اهلا بك يا جو. هل من خدمة أؤديها لك؟»

- « أجل»

- « و ما هي؟»

- « ارحل من هنا بسرعة. نحن لا نريدك»

و استعاد آشرست سمته المترفع و قال:

- « هذا جميل منك. و لكن لابد من معرفة رأي الاخرين أيضا»

و تقدم الفتى الريفي خطوتين الى الامام. و أحس آشرست برائحة العرق الشريف المتصبب من بدنه المكدود في العمل. و قال:

- « لماذا أنت باق هنا؟»

- « لأنني أشتهي ذلك!»

- « وقد تشتهي أن أحطم لك راسك هذا ايضا!»

- « حقا؟ و متى ستبدأ ذلك؟»

و تلاحقت أنفاس جو. و لم يجب. و لكن عينيه اتسعتا و بدتا كعيني ثور صغير. و فجأة غام وجهه و قال:

- « ان ميجان لا تريدك»

و استشاط آشرست غيضا و هب من مكانه مدفوعا بالغضب و الغيرة و البغضاء لهذه الانفاس الثقيلة التي تلفح وجهه. و دفع كرسيه الى الخلف. و قال:

- « اذهب الى الشيطان!»

و بدت ميجان عند باب البستان، و بين يديها جرو صغير قمحي تربت على رأسه و تدلله. و تقدمت اليه و هي تقول:

- « أنظر الى عينيه الزرقاوين!»

و استدار جو الى الخلف و قد بدا قفاه أحمر قرمزيا.

و مدّ آشرست اصبعه يداعب الحيوان الصغير بين يدي ميجان. و كان الجرو ينظر الى وجهها.

- « انه يحبك! آه يا ميجان كلنا نحبك!»

- « ماذا كان يقول لك جو، رجاء؟»

- « كان يطلب مني أن أرحل لانك لا تريدين بقائي هنا»

و ضربت الارض بقدمها و صوبت اليه نظرة حب هزت أعصابه.

- « الليلة! لا تنسي!»

- « كلا»

و دفنت رأسها في فروة الحيوان الصغير و انسحبت الى البيت. و مشى آشرست الى المرج حيث التقى بالرجل الاعرج و هو يرعى أبقاره.

- « انه يوم جميل يا جيم»

- « جو رائع للنبات. ان البلوط سوف يسبق أشجار الدردار هذه السنة»

- « قل لي يا جيم. أين كنت واقفا حينما تراءى لك شيطان الغجر؟»

- « كنت تحت شجرة التفاح الكبيرة على ما اظن!»

- « وهل تعتقد حقا انه كان هناك؟»

و أجاب الرجل باحتياط:

- « ما كان علي أن أقول بالتأكيد أنه كان هناك. انما ألقى في روعي أنه هناك»

- « و ماذا تفهم من ذلك؟»

- « يقولون ان السيد المتوفى، السيد ناراكومب ينحدر من أصل غجري. انها مجرد قصة! فهم ناس طيبون يكسبون رزقهم بعرق جبينهم. و قد يكونون عرفوا انه توفى فارسلوا هذا الشخص للصحبة. هذا ما يجول في خاطري أنا.»

- « و كيف كان شكله؟»

- « كانت هالة من الفضاء تحيط برأسه. و كأنه يعزف على كمان. يقولون انك لن تستطيع رؤية شيء من هذا القبيل الا مع الشياطين! و لكني كثيرا ما رأيت كلبي هذا و حول رأسه هالة من الهواء في الليالي المظلمة التي قد لا ترى العين فيها شيئا.»

- « و هل تعتقد بان الاشباح تؤذي احدا؟»

- « ان الكثيرين هنا يعتقدون ذلك. و كثيرون أيضا لا يفهمون شيئا مما نرى. خذ مثلا « جو» هذا، انه لا يكاد يحس ما تحت اذنيه و كذلك الصبيان. الا صبيتنا ميجان. انها ترى كل شيء و تفهم كل شيء. انها تفوق الالوف من هؤلاء. فاذا كان من شيء فهي أحق أن تراه.»

- « انها ذات حساسية»

- « و ما معنى ذلك؟»

- « أي أنها تحس بكل شيء»

- « آه. انها فتاة طيبة القلب»

و أحس فرانك بالدم يصعد الى وجهه.

و عاد جيم يقول:

- « .. واحدة من مئة. مخلوقة طيبة القلب»

و فكر آشرست في المخلوقة « الطيبة القلب» و وخزته الفكرة و هو يسير على غير هدى بين الحقول حيث ترعى عجول صغيرة. و من فوقها طيور السنونو تخطف هنا و هناك « صحيح! ان أشجار البلوط ستسبق الدردار هذه السنة. و الككم و الآف غيره من الطيور تملأ البستان بتغريدها و زقزقتها.»

« و قد آمن الاقدمون بعمر من الذهب في فردوس هيسبيريد» و حطت حشرة مجنحة على كمه. و كل حشرة مجنحة تقتل تعني ابعاد الفي حشرة عن اشجار التفاح. و لكن، أي عاشق يستطيع ان يقتل شيئا و هو في قمة غرامه؟ و دخل حقلا و راى ثورا صغيرا احمر يرعى فيه. و خيل اليه أنه يشبه جو و لم يلتفت الثور الصغير اليه ولم يعره اهتماما.

و مضى آشرست مصعدا في الكثيب حيث زهور البرية الوحشية. و القى نفسه على العشب الاخضر.

و ظل ينعم النظر في السماء الزرقاء فوق رأسه ساعة. ثم نهض و اقتطف غصنا من شجرة التفاح مفعما بالبراعم الوردية التي تشبه ميجان بطراوتها و صفائها و وضع الغصن في معطفه. و مضى يحلم مع نفسه.

* * *

٦

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة حينما القى آشرست كتاب (الاوديسا) من يده بعد ان ظل يقلب أوراقه نصف ساعة دون أن يقرأ حرفا واحدا فيه. و انسل عبر الفناء الى البستان. و كان القمر قد ارتفع لتوه. فبدا فوق التل متوهجا كقرص من الذهب وهو يسارق النظر. كما تفعل الارواح القوية، من خلال أغصان اشجار الدردار نصف العارية. و كانت اشجار التفاح لا تزال متلفحة بالظلمة. فوقف يتبين طريقه و يتحسس تحت قدميه الاعشاب النائتة الخشنة. و زفر بالقرب منه ثلاثة خنازير كانت تفترش أوحال الساقية قرب الحائط. و أنصت فلم يسمع خفقة النسيم، الا انسياب الماء الرقراق على حصى الجدول القريب. وزقزق طائر مجهول. و ظلت زقزقته الرتيبة تتنقل في فضاء البستان « بيب. بيب.» « بيب. بيب.» .

و سار آشرست خطوتين و ثالثة. و وقف ثانية. و كأن الحياة دبت في كل شيء من حوله. في البراعم المتدلية من الاشجار. في الاغصان في النسمات الرقيقة التي تداعب أذنيه. لقد بدأت القمراء تضفي على هياكل الاشجار حياة يحسها هو من حوله.

و كأن القمر عبأ ملايين من الحيوات الطائرة تحرك أجنحتها الاثيرية عند مستوى ناظريه. و شرد ذهنه. و نسى الغاية من سيره في البستان. و تحرك بين الاغصان المتشابكة المغطاة بالبياض الشامل حتى وصل الى شجرة التفاح الكبيرة. كلا! لقد اخطأها. انها ليست هي. و قفل راجعا الى المرج المفتوح قرب جدول الماء. و استوقفته الاغصان الكثيفة. فوقف برهة يصيخ السمع. انها نفس الاصوات. الجدول، و حفيف الاشجار، و ثمة حشرجة خافتة منبعثة من الخنازير الناعسة عند الحائط البعيد.

« هل ستاتي؟»

« هل؟»

و تملكه الشك وهو مأخوذ بسحر القمراء - الشك في كل شيء.

« ليست هذه الطبيعة التي يعرفها من قبل. انها لا تمت الى الارض بصلة. انها لا تليق بعشاق الارض في شيء. انها لعرائس الحور او للآلهة» .

« و هل من الضروري ان تاتي؟»

و اصاخ السمع من جديد و اذا الطائر المجهول يرسل زقزته الرتيبة عبر الاشجار من جديد:

« بيب. بيب.» « بيب. بيب.»

و علا من جديد خرير الجدول.

و قصف غصنا آخر عليه براعم ثلاثة ندية و اعتصره بين يديه ثم القاه أرضا، « أي عبث و كفران!»

و سمع فجأة صوت باب يفتح. و صرخ صغار الخنازير. و أسبل هو يديه الى جانبه و كتم أنفاسه. « قد تكون احدى الارواح تسير بين الاشجار؟» ثم رآها على مقربة منه. و كأن قامتها الرشيقة جزء من شجرة. و كأن طلعتها البيضاء الناصعة باقة براعم فوق ذلك الجزء. و وقفت في مكانها هادئة ساكنة تنظر اليه.

و همس:

- « ميجان!»

و مدّ ذراعيه. فانطلقت من مكانها الى صدره. و حينما أحس بدقات قلبها فوق أضلاعه طغت عليه معاني البطولة و الشهامة. « انها لم تكن من عالمه في شيء. انها لم تكن غير فتاة بسيطة محبوبة، بلا دفاع. فكيف لا يكون لها غير الحامي في هذا الظلام؟»

« انها هي الطبيعة و الجمال. انها جزء من هذا الربيع كالبراعم المتفتحة على الاشجار فلماذا يرفض ما تمنحه الطبيعة اياه؟ لماذا لا ينفذ الربيع في قلبها و قلبه؟»

و مزقه الركض بين الانفعالين.

و اعتصرها الى صدره. و قبل شعرها.

و ظلا واقفين ساكتين و نسيا مرور الزمن .. و مضى الجدول ينزلق في مجراه. و نعب بوم. و صعد القمر في السماء. و قد اكتسب بياضا على حمرته. و لمعت البراعم البيض فوق رأسيهما و من حولهما و اندفعت شفاههما تبحث بعضها عن بعض. ولم ينبسا بكلام.

كانا يدركان جيدا ان بداية الكلام معناها الفرار من الواقع!

« و الربيع لا يعرف الكلام. لا يعرف غير الخفيف و الهمس. ان للربيع لغى يفصح عنها تفتح أزهاره، و انسياب جداوله و بحثه الحثيث الذي لا يكل.»

« و قد ياتي الربيع حيا هو نفسه. فيطوق العشاق بذراعيه. و يلمسهم بأصابع فتنته. فاذا هم يتجاذبون شفاها لشفاه. و يستغرقون في قبلة. فاذا رفعا رأسيهما ليتنفسا بدأت الفرقة على الفور و التهبت العاطفة بكل قوتها.»

- « آه – يا ميجان! لماذا جئت؟»

و نظرت اليه باستغراب و ألم.

- « سيدي! انك أنت طلبت مني المجيء!»

- « لا تناديني سيدي!»

- « وبماذا أناديك؟»

- « فرانك!»

- « لا أستطيع. اوه. كلا»

- « و لكنك تحبينني أليس كذلك؟»

- « و لا استطيع مقاومة حبك. أريد أن اكون .. معك فقط»

- « معك فقط!» قالتها بغيبوبة.

و همست:

- « سوف أموت ان لم يمكنّي الحظ ان أكون معك.»

و تنفس آشرست الصعداء و هو يقول:

- « تعالي اذن لتكوني معي!»

- « أوه!»

و أسكرته « أوه» هذه فمضى في نشوته يهمس في أذنيها:

- « سوف نذهب الى لندن. و سترين العالم. و سأرعاك و أعدك بألا اكون فظا معك قط يا ميجان»

- « لو أستطيع أن اكون معك – ذلك حسبي. فقط»

و امسك بجدائل شعرها و همس:

- « ساذهب غدا الى « توركي» لاحصل على بعض النقود و أشتري لك بعض الملابس. و بعدها سنهرب. فاذا بلغنا لندن و تأكد لديك أنك تحبينني حقا تزوجنا فورا»

و كان بامكانه أن يحس بالرجفة التي سرت في كيانها من شعر رأسها.

- « أوه. كلا. لا قبل لي بذلك. حسبي أن أكون معك فقط»

و أسكرته بطولته فمضى يزمزم:

- « انا الذي قد لا أكون كفوءا لك يا حبيبتي. قولي يا ميجان منذ متى بدأت تحبينني؟»

- « منذ أن رأيتك في الطريق و نظرت اليّ. في الليلة الاولى أحببتك و لكنني لم أطمع في أنك ستريدني»

و انسلت من بين يديه فجأة و ركعت على ركبتيها و هي تحاول ان تقبل قدميه.

فسرت في جسده رعشة و التقطها من الارض حتى استوت على قدميها و ضمها الى صدرها.

و همست وهي تشرق بالبكاء:

- « لماذا لا تدعني»

- « انا الذي سألثم قدميك»

و اغرورقت عيناه بالدمع. ورأى وجهها الفضي يلمع في ضوء القمر و شفتيها الورديتين المخضلتين قرب شفتيه. فاذا هي نفسها برعم تفاح ينطق بجمال حي لا يمت الى هذه الارض بصلة.

و في لحظة اتسعت عيناها و حملقت عبر كتفيه بجزع و انكمشت بعيدا عنه، وهي تصيح بصوت خافت:

- « أنظر!»

و نظر آشرست فلم يرى شيئا غير الجدول الرقراق و زهور البرية و بضعة أشجار الزان. و من ورائها التل الشاسع الكبير يعكس ضوء القمر.

و تبعته همسة متجمدة من وراءه.

- « شيطان الغجر!»

- « أين؟»

- « هناك - عند الصخرة - تحت الاشجار»

و قفز فوق الجدول و مضى يعدو حانقا عبر أشجار الزان، و في بسطة القمراء الساطعة. فلم يرى شيئا. و عدا اشجار الشوك. و لا شيء ايضا. و دمدم في نفسه و لعن و اندفع مع قليل من الخوف الى الصخرة « سخف و حماقة!»

و قفل راجعا الى شجرة التفاح. و لكنها كانت قد ذهبت. و كان في امكانه أن يسمع بقية حفيف. و ثمة خوار الخنازير. و صرير باب البستان يفتح و يغلق.

و وقف أمام شجرة التفاح وحيدا و مد ذراعيه و احتضن الشجرة. أي بديل لجسمها الرخص الفارع! و أسند وجهه الى قشرتها الخشنة. « أي بديل لخدها الناعم الاسيل. الا شذى الورود وحده يمكن أن يكون بديلا لانفاسها العطرة الدافقة.» و بدأت براعم التفاح من فوقه و من جانبيه في غمرة الاشعة الفضية، تتنفس نسائم الربيع من جديد.

* * *

٧

بعد نزوله من القطار في محطة « توركي» ، ظل آشرست حائرا يذرع الرصيف هنا و هناك. اذ لم يسبق له زيارة هذه المدينة، ملكة مدن انكلترا الساحلية. و طفق يبحث عن فرع المصرف الذي يتعامل معه في لندن حتى وجده. و لكن عقبة اخرى اعترضت سبيله « فهل يعرف أحدا في « توركي» ؟ كلا! في هذه الحالة لا بد من أن يبرق الى المصرف في لندن و يكون سعيدا باستلام الرد غدا»

و كان لاعتناقه المحتمل من عالم الامر الواقع هذا أن كدر قليلا صفاء أحلامه. و أرسل برقيته.

و في مواجهة مكتب البريد، رأى مخزنا مليئا بالملابس النسائية. و استوقفته نافذة العرض فاعتلجت في نفسه احاسيس غريبة. « انه يتعهد ملابس غرامه الريفي.» و اضطرب. و لكنه دخل.

و خفت لاستقباله امرأة شابة بعينين زرقاوين و جبهة متسائلة، و حملق فيها آشرست و هو صامت:

- « نعم. سيدي؟»

- « أريد بذلة لسيدة شابة»

و ابتسمت المرأة الشابة. و لكن الفتى قطب حاجبيه. فقد أدرك غرابة طلبه.

و استدركت الفتاة على عجل:

- « أي طراز؟ من طراز اليوم؟»

- « كلا! ليكن بسيطا»

- « ما هو طول السيدة ؟»

- « لست أدري. أقصر منك بعقدين»

- « و الخصر؟»

« خصر ميجان!»

- « أوه. اعتيادي!»

- « طيب!»

و مضت البائعة و تركته قانطا حائرا يقلب نظره في واجهة العرض. و فجأة خيل اليه أنه لن يصدق أن ميجان - ميجانه هو - التي اعتاد ان يراها في ردائها الصوفي الخشن البسيط و قلنسوتها السكوتلاندية سترتدي شيئا من هذا!

و عادت البائعة تحمل على ذراعيها بضعة ثياب نسائية و طفقت تمسكها على قامتها المتناسقة واحدا بعد الاخر. و أعجبه واحدا منها، رمادي اللون. و لكنه لم يكن في مقدوره أن يتصور ميجان تلبسه. و ذهبت

البائعة و أتت بثياب أخرى. و لكن آشرست أحس بالشلل. « أيها سيختار؟ ستريد قبعة أيضا. و حذاء و قفازا. و .. »

و على فرض انه اشتراها، فكيف ستبدو ميجان فيها .. هل أكثر من فتاة قروية في ملابس العيد الزاهية؟

« كلا. كلا.»

« لماذا لا تسافر كما هي؟ و لكن سينكشف هروبها!»

« لعمري هل ستخمن و تظن في نفسها أنني أغويها؟»

و أخيرا قال للبائعة قانطا.

- « ارجوك أن تحتفظي لي بهذا الثوب الرمادي. فلست قادرا على البت في الامر الان. و سأعود بعد الظهر.»

و زفرت المرأة الشابة. و طرحت الثياب عن يديها. و خرج آشرست الى الشارع. و تنفس الصعداء بعد أن رأى نفسه متحررا من قيود الامر الواقع. و عاد ثانية الى الاحلام.

و تخيل في ما تخيل، مخلوقته الجميلة الواثقة به و التي عزمت على ربط حياتها بحياته، تتسل و أياه عبر المرج تحت أشعة القمر، و ذراعه حول خصرها، و تحت ابطها ملابسها الجديدة. و هناك، تخلع ملابسها القديمة و ترتدي الاخرى. و ثمة قطار في محطة نائية يحملهما معا في رحلة شهر العسل الى لندن حيث تبتلعهما المدينة الكبيرة و يتحقق الحلم ...

- « فرانك آشرست! ايها الفتى العجوز! اين انت؟ لقد افتقدتك منذ مباراة (الركبي)»

و أشرق محيا آشرست. و كان الوجه الاخر، ملوحا بالشمس يحمل عينين زرقاوين. وجه يلتقي على صفحته الناصعة بريق الشمس من السماء ببريق آخر يتصاعد من داخله.

- « فيليب هاليداي! يا الهي!»

- « ماذا تفعل هنا؟»

- « أوه. لا شيء. أتجول فقط. و أحصل على بعض النقود. كنت مقيما في المرج»

- « هل ستتناول غداءك في مكان ما؟ تعال و تناوله معنا. انا هنا مع شقيقاتي الثلاث في رحلة استجمام»

و طوقه صديقه بذراعه و مضى به يصعد رابية و ينزل أخرى خارج المدينة. و صوته المتفائل المرح يروي لآشرست كيف أن العمل الوحيد الذي يستحق ان يقوم به المرء في هذه البقعة هو السباحة و التجديف .. حتى وصلا حارة من البيوت اقيمت على شكل هلال على مقربة من ساحل البحر. و دخل أحدهما - في الوسط - و كان فندقا.

- « تعال الى غرفتي و اغتسل. و سيكون الغداء جاهزا في غمضة عين»

و تطلع آشرست الى صورته في المرآة و تذكر غرفة نومه في البيت الريفي، و مشطه، و ثوبه الاحتياطي

الذي بقى له طوال الاسبوعين الاخيرين. « شيء غريب. لا يستطيع المرء ان يدرك ..»

« أن يدرك ماذا؟» ولم يدر تماما ..

و حينما تبع هاليداي الى غرفة الجلوس لتناول الطعام اتجهت نحوه فجأة ثلاثة وجوه بيض بعيون زرق في اللحظة التي فتح فيها الباب.

و صاح هاليداي:

- « هذا فرانك آشرست - و هؤلاء شقيقاتي الثلاث»

و كانت أثنان منهن صغيرتين، في العاشرة و الحادية عشرة. أما الثالثة فكانت في حوالي السابعة عشرة. طويلة. شقراء. موردة الخدين. و قد لوحت الشمس بشرتها قليلا. و أهدابها أكثر سوادا من شعرها. و كان صوت الثلاثة كصوت شقيقهن، عاليا مرحا.

و وقفن منتصبات و مددن ايديهن بحركة سريعة. و نظرن الى آشرست نظرة فاحصة. ثم جلس الجميع يتحدثون فيما سيفعلون في فترة بعد الظهر.

و استيقظ الفنان في قلب آشرست:

« الالهة ديانا و من جانبها عرائس البحر.»

و اخذ الفتى بهذه الصحبة الرقيقة المنسجمة، و الاحاديث السائغة العجلى. و الضحك، و المرح الصبياني. و بدا له الجو غريبا بعد حياة المزرعة. و لكنه بعد قليل ألف الجو الجديد و انسجم فيه و بدت له حياة المزرعة و كأنها « ما أبعدها!»

و عرف ان اسمي الصبيتين « سابينا» و « فريدا» و الكبرى « ستيللا» .

و استدارت الصبية التي كان اسمها سابينا اليه و هي تقول:

- « قل لي. هل ستخرج معنا لصيد السمك عند الساحل؟ انها رياضة عظيمة!»

و دهش آشرست لهذه اللهجة الودية غير المنتظرة. و لكنه قال بتردد:

- « أخشى ألا أجد متسعا من الوقت. فأنا عائد بعد الظهر»

- « أوه!»

و جاء صوت آخر يقول:

- « ألا يمكن تأجيل ذلك؟»

و استدار آشرست فاذا ستيلا تتحدث. فهز رأسه و ابتسم. لقد كانت جميلة حقا. و عقبت سابينا بأسف:

- « لابد أن تفعل!»

و اتخذ الحديث مجراه الى السباحة و الكهوف البحرية.

- « وهل تستطيع السباحة الى مسافات بعيدة ؟»

- « حوالي الميلين»

- « آه!»

و صوت آخر:

- « ما أبدع ذلك!»

و ثالث:

- « قل لي»

و اتجهت ثلاثة ازواج من العيون الزرق، و استقرت على و جهه و جعلته يدرك أنه أصبح مرموقا. و لذ له الشعور بالاهمية. و قال هاليداي:

- « اسمع! في كلمة و نصف. لا مناص لك من أن تبقى و تستحم و تبيت ليلتك معنا»

و ..

- « أجل. أجل.»

و لكن آشرست عاد يهز رأسه و يبتسم من جديد. و فجأة بدا أن شهرته الرياضية في الميزان. لقد طالما جدف في قارب الكلية و اشترك في فريق كرة القدم. و فاز في عدو الميل!

و نهض عن المائدة و تبعته الصبيتان بثرثرتهما و الحاحهما عليه بضرورة مشاهدة الكهف البحري الذي اكتشفاه و هما تحيطان به من جانبيه. و هاليداي و ستيلا من ورائهم.

و في الكهف المظلم الرطب كغيره من الكهوف، كانت هناك بركة كبيرة فيها حيوانات مائية صغيرة مما يصطاده الاطفال و يضعونه في القناني. و كانت الصبيتان قد خلعتا أحذيتهما و جواربهما و خاضتا وسط البركة بحثا عن الحيوانات المائية و دعوا آشرست للاشتراك معهما و مساعدتهما في الخوض. و سرعان ما خلع الفتى حذاءه و جوربه و خاض البركة وراء الصبيتين.

و من طبيعة الزمن أن يمر بسرعة حينما يكون هنالك احساس بالجمال. فاذا كنت محاطا بصبايا مرحات ضاحكات في بركة ماء، و على الشاطيء، تقف الاهة حسناء - ديانا، تتلقى كل ما تصطاده بدهشة و اعجاب! عند ئذ يتسلل الزمن من بين يديك دون أن تحس.

و كذلك لم يشعر آشرست بمرور الوقت. و حينما أخرج ساعته فوجدها قد جاوزت الثالثة بعد الظهر فغر فاه. « عما قليل سوف ينتهي الدوام الرسمي في المصرف. و لن يصرف صكه هذا اليوم»

و صرخت الصبيتان جذلا و هما تتطلعان الى التعبير المرتسم على وجهه.

- « هورا! سوف تبقى! سوف تبقى!»

و لم يجب آشرست. فقد كان في شغل مع وجه ميجان، و هو يهمس في أذنيها عندما حملت اليه فطوره صباح اليوم:

« أنا ذاهب الى توركي يا حبيبتي لاعد كل شيء! و ساعود مع الغروب! و اذا سارت الامور على ما يرام رحلنا تحت جنح الظلام. كوني على استعداد.» و تخيلها و هي تهتز فرحا و تتعلق بوعده.

« ماذا ستظن به؟»

و بينا هو يفكر أبصر فجأة نظرة التساؤل في وجه هذه الحسناء الفارعة الهادئة المنتصبة أمامه كآلهة الاغريق، على شاطيء البركة.

« ويحه لو ادركوا ما يجول في خاطره!»

و بخليط من الغضب و الضجر و الخجل وضع ساعته في جيبه و أجاب باقتضاب.

- « أجل. لا مندوحة من البقاء»

- « بديع! و الان باستطاعتك أن تستحم معنا»

كان من المستحيل ألا يستجيب الى فرحة هاتين الصبيتين الجميلتين و ابتسامة ستيلا. و جذل هاليداي. و لكن سحابة من اللهفة و التقريع حومت فوق صدره.

- « سوف أعيرك كل ما تحتاجه من الالبسة لهذه الليلة، أيها الفتى العجوز!»

- « لا بد من أن أبعث ببرقية»

و عادوا الى الفندق. و بعث آشرست برقيته بعنوان السيدة ناراكومب:

« آسف لتأخري الليلة. سأعود غدا»

« و ستعرف ميجان أن لديه عملا كثيرا» و أحس براحة.

و كان عصر بديع دافيء و بحر أزرق ساكن.

و سبح بكل قوة. و زاد متعة جذل الصغيرات و تطلع الى ستيلا و هاليداي بسحنتيهما الجذابتين الملوحتين باشعة الشمس قليلا. و فكر أنه سيمضي وقتا ممتعا لساعات « خارج الحقيقة التي يعد لها نفسه - و لا بأس في ذلك!»

و سبح طويلا. و أخذه الجذل الرياضي. و فكر في أن يسبح بعيدا عن الجماعة ليترك لهم حرية أوسع. و لكن سابينا تعلقت به و طلبت اليه أن يعلمها العوم.

و كانت ستيلا تقف بعيدا و قد خاضت الى خصرها في الماء. و فجأة ندت منها صرخة و مالت الى أمام و مدت يديها البيضاويين و هي تومىء الى مكان بعيد و قد اختلطت نظرتها بالرعب.

- « أنظر الى فيليب! هل هو على ما يرام؟»

و نظر آشرست صوب فيليب. و رآه ليس على ما يرام . فكان يعلو و يهبط و يخبط الماء بكفيه و يقاوم باستماتة على بعد مائة ياردة من مكانه. و صرخ بغتة و رفع يديه و غطس في الماء ...

و رأى آشرست الفتاة و هي تلقي بنفسها في الماء في اتجاه فيليب. فصرخ فيها:

- « أبعدي يا ستيلا! أبعدي!»

و ألقى نفسه بسرعة. و سبح بكل قواه، و بأقصى سرعته، حتى بلغ فيليب و هو يطفو على سطح الماء للمرة الثانية. فأمسك به و استله من بين الحشائش التي علقت بساقيه. و كان انقاذه سهلا لان فيليب لم يقاوم.

و أعانته ستيللا عندما بلغ عمقه من الساحل. و أرقدوه على رمال الشاطيء و بدأوا يدلكون أطرافه.

و صحا هاليداي و ابتسم و قال انها كانت نهايته لو لا فرانك. و اقتيد الى ملابسه فوق ذراع آشرست.

و نظر آشرست الى وجه ستيللا المبتل، الباكي. و أشفق في نفسه أنها قد تكون غير راضية عنه لمناداتها باسمها (ستيللا).

و فيما هم يرتدون ملابسهم قال هاليداي بصوت منخفض:

- « لقد أنقذت حياتي أيها الفتى العجوز!»

- « أنت تهذي!»

و عاد الرهط الى الفندق و هم تحت تأثير الحادث. و جلسوا للشاي ما عدا هاليداي الذي اضطجع في غرفته. و بعد تناول الشاي اقترحت سابينا أن يوقع الشقيقات الثلاث عهدا. فجرحت كل منهن اصبعها و قطرته على قطعة من الورق. و سحبته الصبيتان من ذراعيه الى المنضدة حيث الورقة التي رسمت في وسطها صورة وجه، و حوله أسماء البنات الثلاثة في خطوط شعاعية تنتهي عند الصورة، كلها بالدم.

و قالت سابينا و هي تشير الى صورة الوجه في الورقة.

- « هذا أنت! - و قد أصبح لزاما علينا أن نقبلك جميعا»

و عقبت فريدا:

- « نعم. بالضبط»

و قبل أن يتململ آشرست للفرار أحس بخصلة من الشعر الناعم المبتل تتراخى فوق وجهه. و بشفتين صغيرتين تطبقان على أنفه في شبه عضة. و أحس بذراعه اليسرى و هي تقرص و بأسنان تبحث عن خده.

- « و الان جاء دورك يا ستيللا»

و احمر آشرست و نظر عبر المنضدة الى ستيللا و هي تتلون حياء و توترا. و قهقهت سابينا و لكن فريدا

صاحت.

- « اقفزي هيا. - أوه. انها تفسد كل شيء»

و تولت آشرست لهفة خجلة غريبة: ثم قال بهدوء:

- « أيتها الشيطانتان! اليكن عن ستيللا!»

و قهقهت سابينا مرة أخرى.

- « فلتقبل كفها. ثم تضع أنت الكف بيدك على وجهك. انها من جانب واحد»

و دهش آشرست اذ رأى الفتاة تطبع قبلة على كفها و تمدها الى آشرست. و أخذ فرانك بخشوع اليد الباردة النحيفة و بسطها على خده.

و انفجرت الصبيتان في عاصفة من التصفيق. و قالت فريدا:

- « من الان فصاعدا أصبح لزاما علينا ان ننقذ حياتك في أي وقت! و الان ناولينا شيئا من الشاي يا ستيللا»

و أديرت فناجين الشاي مرة ثانية و تناول آشرست الورقة و وضعها في جيبه. و دار الحديث و تشعب من فوائد البرتقال الى أكل العسل بالملعقة الى الانقطاع عن الدراسة .. و ما شاكل ذلك.

و كان آشرست طوال الوقت منغمرا في الحديث و هو يتطلع الى وجه ستيللا الذي بدأ يستعيد طراوته و لونه الوردي المعتاد شيئا فشيئا و لذ له أن وجد الطريق الى قلوب أفراد هذه الاسرة المرحة.

و بعد تناول الشاي، انشغل البنات بضغط النباتات المائية في دفاترهن. و عاود هو الحديث مع ستيللا عند النافذة. و أخذ يتفرج على رسومها المائية.

و بدا له كل شيء في صورة حلم ممتع.

و توقف لديه الزمن و اختلت موازين الاهمية و الواقعية. « و سيعود غدا الى ميجان بعد أن يترك وراءه كل شيء ما عدا هذه القصاصة المكتوبة بدم هؤلاء الاطفال في جيبه»

« اطفال!»

« و هل ستيللا طفلة؟»

« انها بعمر ميجان. و طريقتها في الكلام و ان كانت سريعة، خشنة وحيية. الا أنها ودية و يحيط بها جو من البرودة و البكارة»

و على مائدة العشاء حيث تغيب هاليداي أيضا لابتلاعه كمية كبيرة من مياه البحر. قالت سابينا:

- « سأدعوك فرانك من الان فصاعدا»

ورددت قولها فريدا:

- « فرانك. فرانك. فرانكي!»

و ابتسم آشرست و احنى رأسه.

- « ان ستيللا تناديك سيد آشرست في كل مرة. لابد من أن نفرض عليها غرامة. انه مضحك حقا»

و نظر آشرست الى ستيللا التي بدأت تحمر شيئا فشيئا. و قهقهت سابينا. و صاحت فريدا:

- « انظروا انها تحمر! تحمر خجلا»

و مد آشرست ذراعيه يمينا و يسارا و قبض على خصلتين من الشعر و شد عليهما بقوة وهو يقول:

- « ايتها الشيطانتان. أبعدن عن ستيللا و الا ربطت احداكما بالاخرى!»

و تعالى صراخ الصبيتين و ضحكهما و لعناتهما المرحة على آشرست.

و زمزمت سابينا بين يديه باحتياط:

- « و لكنك دعوتها ستيللا. هل رأيت؟»

- « و ماذا في ذلك؟ أليس جميلا؟»

- « آه. و ما يمنعك أن تدعوها به؟»

و ترك آشرست رأسيهما. و فكر. « كيف ستناديه ستيللا بعد الذي حدث؟» و لكنها لم تناده. الى أن حان وقت الانصراف الى النوم فقال قاصدا:

- « ليلتك سعيدة يا ستيللا.»

- « ليلتك سعيدة يا سيد. ليلتك سعيدة يا فرانك. لقد كان جميلا منك حقا..»

- « ماذا؟ آه. هراء!»

و حينما تصافحا شدت على يده فجأة و بسرعة. و أرخت يدها فجأة و بسرعة أيضا.

و وقف آشرست وحده في الغرفة الخالية لا يريم. « في الليلة السابقة فقط، و تحت شجرة التفاح و البراعم الحية احتوى ميجان الى صدره. و لثم عينيها و قبل شفتيها. و كان مقررا أن يمضي هذه الليلة ليتسلل عبر المرج و تحت ضوء القمر مع التي كان « حسبها أن تكون معه فقط. والآن لا بد أن تمر أربع و عشرون ساعة للتسلل. لأنه - لانه لم ينظر في ساعته في الوقت المناسب»

« لماذا صادق هذه الاسرة البريئة في الوقت الذي عزم فيه على أن يودع البراءة؟» و فكر في نفسه « الم ينو الزواج بها؟ أو لم يقل لها ذلك؟»

و التقط شمعة، و أشعلها و مشى الى غرفته التي كانت مجاوره لغرفة هاليداي. و عند مروره على باب غرفة هاليداي طرق سمعه صوت صديقه يدعوه الى غرفته.

- « أيها الفتى العجوز ! هلا دخلت؟»

و كان قاعدا في سريره يدخن غليونه و يقرأ.

- « اجلس قليلا»

و جلس آشرست قرب النافذة. و قال هاليداي:

- « كنت أفكر فيما حدث بعد الظهر ...»

و عقب بحزن و مرارة:

- « يقال ان المرء في هذه اللحظات ينغمر في تذكر ماضيه. و لكني لم أنغمر كثيرا في ذلك الماضي. أو بالاحرى لم أذهب بعيدا جدا.»

- « و بماذا فكرت؟»

ظل هاليداي صامتا قليلا ثم بدأ يقول بتؤدة:

- « لقد فكرت في شيء واحد. شيء غريب! فكرت في فتاة من طالبات كيمبريج و كان بمستطاعي .. أنت تدرك ما أعني. و لكني كنت سعيدا اذ تركتها و عدلت عن .. على كل حال أنا مدين لك أيها الفتى العجوز. مدين لك بكل ما لدي الان. هذا السرير، و هذا .. و كل شيء. قل لي ماذا سيكون مصيرنا بعد هذا في رأيك.»

و دمدم آشرست:

- « أن نذهب في ألسنة من اللهيب!»

- « بيوه!»

- « و قد نحوم قليلا و نتشبث بشيء قبل أن يبتلعنا اللهيب!»

- « ان ذلك يبدو محزنا نوعا ما. قل لي يا آشرست ما رأيك بشقيقتاي؟ هل كن رقيقات معك؟»

- « منتهى الرقة!»

و وضع هاليداي غليونه جانبا و عقد ذراعه خلف رأسه و أدار وجهه الى النافذة و قال:

- « انهن بنات طيبات»

و مكث آشرست لحظة يرقب صديقه المضطجع هناك و الابتسامة تعلو شفتيه و الشمعة تضيء وجهه، و أخذته الرجفة .. كان من الممكن أن يكون راقدا هناك بدون ابتسامة! و بدون تلك السحنة الملوحة المحبوبة! و كان من الممكن ايضا ان لا يكون راقدا هنا أصلا - بل هناك! فوق رمال البحر، في القاع. ينتظر البعث ليأتيه بعد تسعة أيام .. هل كان من الممكن ذلك حقا؟

و بدت له ابتسامة هاليداي شيئا جميلا. و كان فيها « الفارق الاكبر بين الموت و الحياة» - « الشعلة

الصغرى» - « الكل» .

و نهض و قال برقة:

- « لا أعرف شيئا. و لكن الموت أمر مريع. عم مساءً أيها الولد العجوز»

و ضغط على يده و ترك الغرفة. و قفل يهبط السلم الى الردهة.

و كان باب الردهة لا يزال مفتوحا فمر به في طريقه الى الحديقة المزروعة في الحارة الهلالية خارج الفندق. و كانت النجوم تلمع في سماء زرقاء داكنة جدا. و على ضوء لمعانها أبصر بعض شجيرات الليلاك و قد انتثرت عليها زهور بدا من الصعب عليه أن يصف ألوانها الساحرة في ضوء النجوم. و دنا بوجهه حتى التصق باحدى هذه الزهور و اغمض عينيه. و قفزت أمامه صورة ميجان و هي تحمل فوق صدرها الجرو الصغير الجميل.

« لقد فكرت في فتاة من طالبات كيمبرج. و كان بمستطاعي أن .. و أنت تدرك ما اعني .. و لكني كنت سعيدا اذ تركتها و عدلت عن .. » و سحب وجهه من زهرة الليلاك و بدا يذرع العشب تحت قدميه جيئة و ذهوبا.

و بدا له شبح يتجسد على ضوء مصباح بعيد ... و كان معها ثانية تحت وهج البياض الحي المتنفس من براعم الربيع. و الجدول ينساب برقة. و القمر ينفض أشعته الفضية الزرقاء فوق المروج. و كان مغمورا في الانتعاش يلثم وجهها البريء الحاني. و كان مأخوذا بسحر تلك الليلة الكافرة!

و وقف برهة هادئا ساكنا في ظل شجرة الليلاك. فهنا البحر و ليس الجدول محدث الليل. البحر بخريره و حشرجته. لا شحرور و لا بوم يغني أو ينعب. و انما بيانو يدندن أنغامه في سكون. و مباني الدور الباذخة تقطع رحب السماء في الافق. و عبير الليلاك يملأ الجو في كل مكان.

و فتحت في مبنى الفندق نافذة عالية. و مر شبح من وراء الستائر. و اعتلج في نفسه احساس شديد الغرابة. نوع من مخاض عاطفة. احساس مفرد بعينيه يدور حول نفسه. و كأن الربيع و الحب استنفرا من مكانهما و هما يدوران و يلفان ليجدا لهما مستقرا و ملجأ من جديد.

« هذه الفتاة!»

التي سمته باسمه (فرانك) ، و التي ضغطت على يده بيدها الباردة البضة قبل لحظات، ماذا سيكون رأيها في غرامه الخاطيء الوحشي؟

و تهالك على العشب الاخضر. و جلس القرفصاء موليا ظهره شطر الفندق كأنه الحكيم بوذا.

« هل سيودع براءته حقا و يمد يده ليسرق؟» « و يقطف زهرة وحشية ليشمها، ثم - لعله - يلقيها بعيدا عنه؟»

... « في فتاة من طالبات كيمبريج. و كان بمستطاعي أن .. و أنت تدرك ما أعني ..»

و بسط كلتا يديه على العشب الاخضر. و لمس باصابعه العشب. و كان لا يزال دافئا ناعما و وديا. و فكر في نفسه « ماذا هو صانع؟ لعل ميجان هي الاخرى كانت الآن في نافذتها تتطلع الى البراعم في المرج و

تفكر فيه»

« يا صغيرتي المسكينة، ميجان!»

« و لم لا؟ انه يحبها. و لكن، هل هو يحبها حقيقة؟» « أو هو يريدها لانها جميلة و تحبه؟»

« ماذا سيصنع؟»

و دندن البيانو من بعيد و خفقت النجوم. و تطلع آشرست الى البحر المظلم الممتد أمامه في نظرة ثابتة حالمة و كأنه مأخوذ.

و نهض أخيرا متعبا و احس بالبرد. و لم يعد هنالك ضوء ما في أية نافذة. و مضى الى فراشه لينام.

* * *

٨

و في الصباح أيقظه من نومه العميق الخالي من الاحلام طرق على الباب و صوت عابث يصيح:

- « هاي! الفطور جاهز!»

و قفز من سريره.

« أين هو الآن؟ آه»

و لحق بهم وهم يأكلون المربى. فجلس في المكان الخالي بين ستيللا و سابينا التي رمقته لحظة ثم قالت:

- « كل بسرعة! سوف نبدأ الرحلة في التاسعة و النصف»

- « نحن ذاهبون الى « بيري هيد» أيها الفتى العجوز. و يجب أن تأتي معنا»

و شرد آشرست في نفسه، « اذهب؟ مستحيل. ساشتري الاشياء و اعود» . و نظر الى ستيللا. فقالت بسرعة:

- « تعال. أجل!»

و تدخلت سابينا.

- « لن تكون متعة بدونك!»

و نهضت فريدا و وقفت فوق كرسيه.

- « لابد أن تأتي. و الا شددت على شعرك»

و فكر آشرست، « فليكن يوم آخر - يفكر فيه. يوم آخر!» و قال:

- « طيب. لا حاجة لك بجر أعرافي»

- « هورا!»

و في المحطة كتب برقيته الثانية الى المزرعة، و لكنه مزقها لانه لم يجد عذرا مقبولا لتأخره.

و سارت بهم العربة الصغيرة من « بيكسهام» . و قد حشر بين سابينا و فريدا و التصقت ركبتاه بركبتي ستيللا التي كانت تجلس في مواجهته. و تبدد في صخب الرحلة حزنه و بدا مرحا طروبا.

و في هذا اليوم الذي خصصه للتفكير أكثر! لم يحس بالرغبة في التفكير أصلا. فقد فكروا جميعا في السباق و المصارعة و التجذيف و الغناء و أكل كل ما يمكن أن يقع في أيديهم - و لم يفكر أحدهم بالسباحة.

و في طريق العودة أغفت الصبيتان على كتفيه و لم تزل ركبتاه تلامسان ركبتي ستيللا في مواجهته في العربة الصغيرة. و بدا له أنه مما لا يصدق بأن ثلاثين ساعة فقط مرت على معرفته بهذه الرءوس الشقراء

الثلاثة ...

و في القطار تحدث مع ستيللا عن الشعر. فعرف ما تحب منه. و حدثها عن ميوله الشعرية هو مع احساس ممتع بالتعالي ..

و تحدثا عن الدين و الحياة الآخرة و الصلاة. و فجأة قفزت الى ذهنه ميجان و صلاتها التي سمعها نيك حينما كان ينام.

« اللهم احفظنا جميعا. و احفظ السيد آشس أيضا!»

« من كان غيرها ليصلي من أجله؟ غيرها، التي لا بد أن تكون في انتظاره في هذه الساعة. في انتظاره يمر بالمرج .. »

و فكر فجاة:

« كم أنا وغد!»

و ظلت الفكرة تخزه طوال تلك الامسية. كل مرة بأقل مرارة من سابقتها .. الى أن بدى له أنه وغد حقا. و لكن الغريب أنه لم يعرف بالضبط بأنه وغد، لانه لا يريد العودة الى ميجان، أو لانه يريد العودة اليها.

و لعبوا الورق الى أن حان وقت انصراف البنات الى فراشهن.

و جلس آشرست في المقعد المجاور للنافذة يتطلع من بين الشموع الى رأس ستيللا الاشقر منتصبا فوق عنقها الابيض الناصع الطويل، و هي تميد مع حركة أصابعها فوق مفاتيح البيانو. و عزفت بمهارة و بدون تعبير كثير. و لكن « ما أجملها في جلستها الهادئة و هي تتألق برأسها الذهبي و تميد مع الانغام!»

« هل كان في مقدور أي واحد أن يخاطر في جوها هذا و يستجيب في داخل خواطره لعواطف مخطورة أو حب وحشي؟»

و عزفت قطعة لشومان. و دخل هاليداي يحمل نايا و شاركها العزف. و زايل التوتر العاطفي جو المكان. و حمل الشقيقان آشرست على أن يغني القطعة و هما في ملازمته على البيانو و الناي.

و في منتصف الاغنية زحف شبحان صغيران في ملابس النوم البيضاء و حاولا اخفاء انفسهما تحت البيانو. و انتهى السمر بمرح و ضحك.

و لم يستطع آشرست أن ينام ليلته تلك. و ظل يتقلب في فراشه يفكر و يضرب أخماسا بأسداس.

« ان صداقته العميقة الوثيقة في هذين اليومين، مع هذه الاسرة الاليفة قد طوقته و استحوذت عليه و جعلت من ذكرى المزرعة و ميجان - حتى ميجان نفسها - طيفا من الاطياف»

« هل احبها حقا؟»

« و هل وعدها - حقا - بأن يعيش معها ؟»

« لا بد أنه أخذ بسحر الربيع، و الليل، و براعم التفاح!»

« ان جنون مايو كان سيحطمهما معا»

« أما عن اتخاذها عشيقة! - هذه الطفلة الساذجة التي لم تبلغ الثامنة عشرة بعد - فقد ملاءته الفكرة رعبا و دفعت الدم الحار الى عروقه.»

ودمدم لنفسه:

« انه لمخيف. مخيف!»

و ارتفع صوت موسيقى شومان و اختلط بأفكاره المحمومة الملتهبة. و مرت من أمامه ثانية صورة ستيللا، باردة بيضاء. و قد تدلى شعرها الذهبي فوق عنقها الطويل و هي مطرقة على البيانو و من حولها ذلك التألق السماوي الساحر.

و فكر في نفسه:

« لا بد أني اصبت بالجنون. ماذا جرى لي يا الهي؟» « آه يا صغيرتي ميجان!» « فليحفظنا الله و ليحفظ السيد آشس!» أريد أن أكون معك! حسبي أن اكون معك و لا غير ..»

و دفن رأسه في الوسادة. و نشج و زفر.

« ان لايعود اليها، مخيف!»

« و مخيف أكثر، أن يعود»

« اذا دهمتك سورة العاطفة و أنت شاب، فأعطها متنفسا حقيقيا. فستتهافت و تفقد قدرتها على التعذيب!»

و اغمض عينيه و هو يعيد:

« لم تكن غير قبلات معدودات - و لسوف تنسى كليا في غضون شهر»

و في صبيحة الغد، تلقى جواب برقية المصرف، و صرف صكه. و لكنه تجنب مخزن الثياب المواجه لمكتب البريد، و البذلة الرمادية كما يتجنب الطاعون. و اشترى لنفسه بعض اللوازم. و أمضى سحابة يومه يغالب كآبته. و أحس بفراغ مفاجيء في حياته بعد المنازعة الخفية مع نفسه التي ملأت عليه يوميه الاخيرين. و كأن سيل العواطف الذي كان يجيش في قلبه قد انساب خارجا مع قطرات الدمع في الليلة المنصرمة.

و بعد تناول الفطور وضعت ستيللا بجانبه كتابا و هي تقول باستحياء:

- « هل قرات هذا يا فرانك؟»

و كان كتابا عن « حياة المسيح» و ابتسم آشرست. « ان اهتمامها بمعتقداته الدينية بدا له مضحكا و مؤثرا في نفس الوقت» و لكنه وجد بذلك مناسبة ليناقش فيها نفسه اذا لم يتح له مناقشتها هي.

و في المساء حينما كان هاليداي منشغلا في اصلاح عدة صيد البنات قال لها:

- « ان في أغوار المذهب الارثوذوكسي، الى المدى الذي أستطيع الذهاب اليه، ترقد فكرة المثوبة - فكرة أن تتلقى مكافئة على طيبتك، نوع من استجداء الخير. و أرى أنها بداية من خوف»

و كانت جالسة على مصطبة تحوك خيوطا من الصوف. فتطلعت اليه سريعا و قالت:

- « أظنها أكثر عمقا من ذلك»

و دغدغت آشرست ثانية رغبة التعلي فقال:

- « أنت تظنين ذلك. و لكن، أن نطلب « هذا لذاك» يكاد يكون أعمق أغوارنا. و من الصعب الممتنع أن نجد الى قاعة السبيل»

و عقدت حاجبيها و قالت:

- « لا أظنني أفهم ما تقول»

و مضى هو في عناده:

- « طيب! فكري جيدا. ألا ترين أن أغلبية المتدينين يعتقدون بأن هذه الحياة لم تعطهم كل ما يريدون؟ اني أؤمن بالخير لان عمل الخير هو في حد ذاته شيء جميل .. و خير»

- « اذن أنت تؤمن بالخير؟»

و تهلل وجهها الجميل ..

« لقد كان من السهل أن يكون خيرا معها» و أومأ برأسه:

- « أريني كيف تعقفين هذه العقدة على الخيط؟»

و مضى يجرب معها العقدة و أصابعهما تتلامس و تتشابك و أحس بالنعومة و السعادة. و حين أوى الى فراشه تعمد أن يركز افكاره فيها و تلفف في تألقها الاخوي البارد الشفاف. كما يتلفف النائم في غطاء ناعم واق.

و في الصباح بلغه أنهم أعدوا العدة لان يخرجوا للنزهة .. الى قلعة « بيرى بوميروى»

و تنفيذا لعزمه على نسيان الماضي احتل مقعده في العربة الى جانب هاليداي في الاتجاه المعاكس للسير. و سارت العربة محاذية ساحل البحر ..

و بالقرب من منعطف الطريق الى محطة القطار. أحس آشرست و كأن قلبه يسقط فجأة بين يديه. فقد رأى من بعيد، ميجان - ميجان نفسها - تمشي في الطريق الضيق بين الحقول في ملابسها الخشنة و قلنسوتها العتيدة، و هي تتفرس في وجوه المارة واحدا واحدا.

و بحركة غير ارادية رفع يديه الى وجهه. ثم تظاهر بمحاولة ازالة الغبار عن عينيه. و لكنه ما انفك يسترق النظر اليها من خلال أصابعه و هي تمشي، لا كعهده السابق بها، بل تتخبط في خطوات مرتبكة، ضائعة - على غير هدى و قرار. كبعض الكلاب الصغيرة التي فقدت أصحابها و لم تدر كيف تعود؟ و أين

تعود؟ و لماذا تعود؟

« كيف خرجت؟ كيف تركت المزرعة؟ ماذا تلتمس؟»

و مع كل دورة تدورها عجلات العربة لتقصيه عنها كان قلبه يثور فيه. و يصرخ به أن يقف و ان يخرج اليها!

و عندما استدارت العربة في المنعطف لتأخذ سبيلها الى المحطة لم يعد قادرا على مغالبة الثورة المتأججة في قلبه. ففتح باب العربة و قفز خارجا وهو يقول:

- « لقد نسيت ثمة شيئا. استمروا. لا تنتظروني»

و عثر في الارض ثم دار على عقبيه و استعاد موازنته و مشى قدما، مخلفا وراءه أسرة هاليداي و قد عقدت الدهشة ألسنتهم في العربة السائرة.

و من زاوية الطريق كان بامكانه أن يرى ميجان من مسافة بعيدة. و ركض بضع خطوات ثم عاد الى نفسه و استمر بالمشي. و كل خطوة كانت تقربه اليها و تبعده من آل هاليداي كانت تزيد بطأ عن سابقتها.

« كيف قلب مرآها المفاجيء كل شيء دفعة واحدة؟»

« كيف حبب اليه فجأة الذهاب اليها و كل ما يمكن أن يستتبع ذلك من قباحة؟ - فلم يعد هنالك شيء يخفى ..»

« فمنذ أن التقى بآل هاليداي أخذ يقتنع تدريجيا بأنه لن يتزوج من ميجان ... اذ لن يكون الزواج منها غير سويعات غرام عنيف، تعقبها فترات من تأنيب الضمير و بعدها - سيشعر بالملل، لانها وهبته كل شيء» « و تطير قطرات الندى!»

و تحركت أمام عينيه من بعيد قلنسوتها الريفية الحائلة اللون، و كانت تتفرس في كل الوجوه و في نوافذ الدور.

« هل مرت بأي رجل لحظات أقسى مما كانت تمر به؟ انه وحش بلا ريب، مهما صنع بعد ذلك!»

و زفر زفرة حارة أخرجها من أعماقه فجلبت انتباه ممرضة كانت تمر بالقرب منه، فنظرت اليه.

و أبصر ميجان تقف و تدنو من سياج البحر. و تحملق في المياه. و وقف هو أيضا.

« و كأنها لم تر البحر قبل اليوم. حتى في محنتها هذه لم تستطع مقاومة التطلع الى مياه البحر»

و فكر في نفسه:

« أجل. انها لم تر شيئا. و كل شيء أمامها. انه غرام بضعة أسابيع لا أكثر. و مع هذا فهي تكاد تعمى عن كل شيء آخر. لسوف أتسبب في تمزيق حياتها اربا. اربا. خير لي أن أشنق نفسي من أن ..»

و فجأة تراءى له أنه يرى وجه ستيللا الهاديء و هي تنظر في عينيه، و قد تطايرت خصلات شعرها فوق جبينها في مواجهة الرياح.

« آه»

« ان من الجنون أن يخسر هذا الذي يقدسه و يخسر معه ثقته بنفسه. و قفل عائدا مسرع الخطى في اتجاه العربة.

و لكن ذكرى الصبية المضيعة السائبة، ذكرى العينين المتفرستين في وجوه العابرين ظلت تلاحقه و تشد عليه. و استدار برأسه مرة أخرى الى البحر و لكنه لم ير القلنسوة. لقد ضاعت الوانها الحائلة في سيل المتنزهين على ساحل البحر هناك.

و دفعته اللهفة، لهفة من مسته المجاعة فاذا هو يرى أن حياته تتعلق بشيء خارج متناول يده، بان يسرع في سيره عائدا الى البحر. ولم يعد يراها. فبحث هنا و هناك و لم يجدها. و ظل يدور نصف ساعة دون جدوى. فالقى نفسه فوق رمال الساحل. و فكر أنه لابد للعثور عليها من ان يذهب الى محطة القطار. و ينتظر هناك عودتها من تجوالها العقيم لتركب القطار و تعود الى منزلها. أو ليركب هو القطار و يتبعها الى المزرعة لكي تجده هناك عند عودتها.

و لكنه ظل جامدا على رمال الشاطيء بين الاطفال الذين يحملون معاولهم و سطول لعبهم.

و رثى لضياعها و بحثها الفاشل عنه. و تحرك دم الربيع الحار في شراايينه و هو في غمرة عواطفه الجائشة. و قد استبعد جانب الشهامة من نفسه شيئا.

« لقد كان يريدها! ثانية»

« يريد قبلاتها. يريد جسدها الرخص الصغير»

« يريد استسلامها. و كل عواطفها الملتهبة، الثائرة الفاجرة»

« يريد الاحساس الغريب الذي داخله ليلة القمراء تحت براعم التفاح»

« يريد كل هذا بشدة وبعنف!»

« و خرير ذلك الجدول الصغير الرقراق. و بريق السوسن الاصفر. و صخور « المتوحشين» . و اغاريد الككم و نعيق البوم. و القمر القاني و هو يسترق النظر في الظلام المخملي الى البياض الحي في براعم الربيع. و وجهها في النافذة بعيدا عن متناول يده، ضائعا في نظرة الحب المطلة من عينيها النديتين!»

« و قلبها فوق قلبه. و شفتيها تتجاوب مع شفتيه تحت شجرة التفاح»

و أحاطت به و طوقته كل هذه الذكريات « و أرادها!» . و لكنه ظل مع ذلك جامدا لا يتحرك فوق رمال الشاطىء.

ما الذي قاوم فيه الرثاء و الشوق المحموم و سمّره في مكانه الى ذرات الرمل الحارة فوق الشاطيء يا ترى؟

ثلاثة رءوس ذهبية. و وجه أبيض فيه عينان زرقاوان. و يد نحيفة تضغط على يده و صوت سريع ينطق باسمه - « اذن انت تؤمن بالخير!»

أجل. و ثمة حدائق مسورة فيها زهور الليلاك و يتصاعد منها عطر الخزامي و الورود. - باردا نقيا مقدسا.

و فجأة أسر في نفسه:

« و قد تعود فتلقاني على الشاطيء!»

و نهض و لزم سبيله الى صخرة نائية في طرف الشاطيء و مكث هناك ليواصل افكاره بتؤدة.

« أن يعود الى المزرعة و يحب ميجان في المرج و عند الصخور حيث كل شيء يوحي بالوحشة و الاغتراب، أمر مستحيل»

« أن ينقلها الى مدينة كبيرة و يحتفظ في شقة صغيرة أو بضعة حجرات، بفتاة نمت و ترعرعت في أحضان الطبيعة .. » لم يستسغها الشاعر في أعماقه.

« و قد تكون عواطفه مجرد لذائذ عابرة. فاذا بسذاجتها و قلة تجربتها تجعل منها في مدينة كبيرة كلندن مجرد لعبة خفية يلهو بها. في أوقات فراغه و حسب ..»

و ظل يناقش نفسه بهدوء فوق الصخرة النائية عند شاطيء البحر. و بدا ان ميجان تتحسر عنه شيئا فشيئا لتنساب في البحر تحت قدميه. و وجهها الضائع يتطلع اليه و يتوسل به و يمعن في تعذيبه!

و نهض أخيرا. و نزل عن الصخرة الى البحر. و خلع ملابسه. « قد يفيد الاستحمام في استعادة نشاطه و السيطرة على أعصابه و تخفيف هذه الحمى.» و أراد أن يتعب نفسه فسبح بكل قواه. و أمعن في الابتعاد عن الشاطيء. و فجأة، و بدون دليل أحس بالخوف يستولي عليه ..

« فقد لا يستطيع العودة الى الساحل ..»

« و قد يجرفه التيار بعيدا ..»

« أو قد تتعلق ساقاه كما حدث لهاليداي!» و عاد يسبح في اتجاه الشاطيء. و بدت له الصخور الحمراء على الشاطيء، بعيدة جدا.

« و لئن غرق فقد يعثرون على ملابسه.» و سيعرف آل هاليداي . و لكن ميجان لن تسمع قط. فانهم لا يقرءون الصحف في المزرعة.

و خطرت له كلمات فيليب هاليداي مرة أخرى. « فتاة من طالبات كيمبريج. كان في مستطاعي أن - سعيد باني لم - »

و في تلك اللحظة من الخوف الطاريء الذي لا مبرر له « عاهد نفسه على أن يتركها و لا يحاول العودة اليها.» و عند ئذ زال عنه خوفه. فسبح بسهولة و صعد الى الشاطيء. و جفف نفسه في أشعة الشمس. و ارتدى ملابسه. و أحس بمرارة في قلبه. و لكن، بلا ألم. و قد انتعش جسمه بالماء.

ان من يكون شابا في عمر آشرست لا يحس بسلطان الرثاء قويا على قلبه.

و حينما عاد الى غرفة الاستقبال في بيت هاليداي و تناول فنجانا من الشاي أحس احساس الرجل الناقة الذي شفى لساعته من حمى. فبدا له كل شيء جديدا مستساغا. الشاي و الزبدة و الخبز و المربى. و لم تلذ

له نكهة التبغ بأحسن مما لذت له اليوم.

و ظل يقطع الغرفة رواحا و غدوا. يقف هنا و هناك ليلمس هذا و ينظر في ذاك. و التقط سلة حياكة ستيللا. و لمس بأصابعه كرات الخيوط القطنية و قطع الحرير المطرزة بالالوان الجميلة. و شم حقيبة فيها بضعة زهور برية.

ثم جلس الى البيانو يعزف لحنا ما، باصبع واحدة وهو يقول لنفسه:

« ستعزف الليلة! و لسوف أراقبها عن كثب»

و التقط الكتاب الذي كان لا يزال في موضعه و حاول ان يقرأ فيه. و لكن صورة ميجان الصغيرة الحزينة بدت تعود اليه مرة أخرى. فنهض من مكانه و مال عبر النافذة يتطلع الى الفناء الخارجي و البحر الازرق الحالم من وراء الاشجار.

و أبصر آل هاليداي يدخلون الحارة الهلالية أمام الفندق. ستيللا في المقدمة و فيليب و الصبيتان و معهم سلالهم من ورائها. و بحركة لا شعورية سحب نفسه داخل النافذة. و أحس بقلبه الحزين يهرب من هذه الصحبة. و لكنه مع هذا هش للقائهم طلبا للسلوى. و انجذابا لمحيا ستيللا الجذل.

و راقبها من وراء البيانو و هي تدخل الغرفة قي المقدمة. فتلقى نظرة على الغرفة الخالية و تظهر على سيماها أمارات خيبة أمل. ثم تلمحه، فيشرق وجهها بابتسامة عذبة بعثت الحماس و العصبية في آن واحد الى نفس آشرست.

- « آه فرانك. لم تلحق بنا»

- « لم يمكنني ذلك»

- « أنظر! لقد قطفنا كمية من هذا البنفسج الجميل المتأخر»

و وضع آشرست وجهه في باقة الزهور و أحس كأن صورة ميجان تلح عليه ثانية. و قال:

- « ما أجملها!»

و انسحب الى غرفته و هو يتجنب مقابلة البنات في طريقهن فوق السلالم. و استلقى على سريره و يداه معقوفتان فوق وجهه.

« و اذن، فقد نفذ السهم»

« و اذن، فقد نأت عنه ميجان»

« و اذن فقد أبغض نفسه» ، « و أبغض حتى آل هاليداي» « و أبغض جو البيت الانكليزي المريح السعيد الذي يحيط بهم.»

« لماذا ألقت المقادير بهم بطريق غرامه الاول ليلقوا في روعه أنه لن يكون أكثر من داعر أفاق؟»

« بأي حق جعلته ستيللا بوجهها الصبوح، و جمالها الحي يؤمن ايمانا راسخا بانه لن يتزوج من ميجان؟»

« آه يا ميجان. لابد أنها عادت الان من جولتها الفاشلة الى المزرعة و في قلبها أمل ضعيف برؤيته في انتظارها هناك»

و عض على كمه ليمنع زفرة التفريع التي كادت تند من بين أسنانه.

و جلس الى عشاءه صامتا مغموما.

و كانت أمسية حزينة. فقد ألقى صمته ظلا على مرح البنات المنهكات فالتزمن السكون. و ظلت ستيللا تنظر اليه و قد جرحها صمته .. و لذ له ذلك!

و نام على تعاسته. و نهض مبكرا و غادر الفندق و هو يهيم على وجهه. و عند الشاطيء جلس الى البحر الازرق الهاديء يهدهد قلبه.

« مغرور أحمق! أيحسب أن ميجان ستقيم أبد الدهر على حبه؟ انها مسألة أيام. و بعدها ستسلوه و تنساه. و يكسب هو شرف الفضيلة. و يعود شابا صالحا يستحق أن تباركه ستيللا و تشيد ببطولته في مقاومة الشر لو علمت بذلك.»

و أطلق ضحكة مدوية! ثم انكمش خجلا من نفسه في غمرة الهدوء الشامل فوق الشاطيء الفسيح. فاغتسل ثم عاد الى الفندق.

و في حديقة الفندق الهلالية. كانت ستيللا تقتعد كرسيا سفريا و ترسم. فمشى اليها متمهلا و وقف عند رأسها: و كانت جميلة في جلستها و قد أحنت رأسها لتقيس أبعاد المنظر بفرشتها فوق اللوحة.

و بادرها برقة:

- « آسف لما بدر مني في الليلة السابقة. لقد كنت وحشا حقا»

و استدارت اليه و اجابته بلهجتها السريعة القاطعة و قد تورد خداها:

- « لا ضير في ذلك. لقد أدركت أن هنالك ما يشغلك. انه لايهم بين الاصدقاء. أليس كذلك؟»

و أجاب آشرست:

- « بين الاصدقاء - أجل. أو لسنا اصدقاء؟»

و نظرت في عينيه و أومأت برأسها بحماس. و لمعت أسنانها البيض في ابتسامة عذبة مشرقة.

و بعد ثلاثة أيام عاد الرهط جميعا. بما فيهم آشرست الى لندن و لم يكتب الى المزرعة. اذ لم يكن لديه شيء يقوله؟

و في آخر يوم ابريل من السنة التالية تزوج آشرست من ستيللا.

* * *

٩

هكذا كان آشرست الشيخ الملتحي الذي يشبه الى حد ما الشاعر شيللر يستعيد ذكريات صباه وهو جالس فوق العشب عند الحائط القديم، في يوم الذكرى الفضية، لمرور ستة و عشرين عاما على زواجه. و تخيل ميجان و هي تقف في نفس البقعة و ظهرها الى السماء الزرقاء تماما كما قابلها هناك لاول مرة.

و دفعه سيل الذكريات الى أن يهب من مكانه و يلقي نظرة على المزرعة و البيت الريفي، والمرج، و حقل شيطان الغجر. و لا سيما أن ستيللا لن تنهي رسمها قبل مضي ساعة أخرى.

انه يتذكر المكان جيدا.

فهذه مجموعة أشجار الصنوبر و من ورائها الكثيب المعشوشب. و توقف لحظة عند باب المزرعة. و تطلع الى البيت الحجري ذي النوافذ الخشبية. و من أمامه القمرية العتيدة. و أشجار الشوك وهي كما كانت. لم يتغير منها شيء. حتى كرسيه الاخضر القديم كان لايزال في مكانه فوق أعشاب البيت و تحت النافذة التي صعد اليها ذات ليلة ليلتقط المفتاح الكبير البارد من يدي ميجان المغضنة الدافئة.

ثم عاد الى المرج. و اتكأ على باب البستان التي لم يبقى منها غير هيكل متأكل من الخشب. و كان ثمة خنزير اسود يثغو بين الاشجار هناك.

« هل يصدق أن ستة و عشرين عاما مضت على ذكرياته؟ أم أنه في غمرة حلم و سيصحو منه عما قريب ليجد ميجان واقفة هناك عند شجرة التفاح تنتظر عودته؟»

و بحركة غير ارادية رفع يده الى لحيته المدببة يتحقق في طياتها الواقع الذي هو فيه.

و فتح الباب و خرج الى المرج يتخطى الاعشاب و شتائل الزهر البري، و السوسن. الى أن بلغ شجرة التفاح العتيدة. انها هي لم تتغير قط. الا بضعة فروع رمادية خضراء أخرى، حلت فيها مكان جفت و تهافتت و هي تغالب السقوط. أما باقي أجزاء الشجرة فهي نفسها و كأنه رآها لآخر مرة و احتضنها بعد ذهاب ميجان، في ليلته الماضية فقط.

و في ذلك الربيع المبكر كانت بضع براعم عجلى قد انبثقت فوق الاشجار. و ثمة ككم و شحرور يرددان أغاريدهما في دفء الشمس الطالعة. و ذلك الجدول الضيق الرقراق، و في نهايته البركة الصغيرة التي استحم في مائها الضحل في اليوم الاول من زيارته للمزرعة .. انها كلها هناك و لم تغير من حالها يد الزمن شيئا.

« شيء عجيب. لا يصدق!»

و في الحقل، حيث أشجار الشوك و صخرة الشيطان دهمته حسرة على الشباب الذاهب و الحب المضيع.

« لقد كان من طبيعة الجمال الجاثم في هذه البقعة أن يدفع النفس الشابة الى الحب، و مع ذلك فلم يكن ذاك بالمستطاع!»

و مضى يجوس خلال المرج حتى بلغ مفترق الطرق حيث السيارة.

و هناك رأى فلاحا عجوزا يتكيء على عصا، يتحدث الى السائق. و حينما أبصر الفلاح آشرست قادما نحوهم هب في وقفته و كأنه أخل بقواعد الاحترام. و لمس قبعته و مضى يعرج نحو المرج.

ولكن آشرست استوقفه لحظة. و أشار باصبعه الى الضفة الضيقة المعشوشبة في الارض و سأله:

- « هل هذا قبر ؟»

و وقف الشيخ لحظة و قد عقد حاجبيه كمن يفكر في شيء بعيد.

- « نعم سيدي. انه قبر»

- » ولكن لماذا هنا؟»

و ابتسم الشيخ و هو يقول:

- « انها قصة طويلة كما يقولون. و لست أول من يسأل عنها يا سيدي. فقد طالما سألني عنها العابرون من هذه المنطقة. انه قبر الصبية كما نسميه نحن هنا.»

و اخرج آشرست كيس التبغ و فتحه أمام الشيخ الذي لمس قبعته و ملأ منه غليونه الطيني بتؤدة. ثم رمشت عيناه قليلا و نظر الى الافق البعيد و قال:

- « لو تسمح لي يا سيدي بالجلوس. ان ساقي تؤلمني قليلا اليوم»

و اقتعد صخرة بالقرب من القبر و استأنف كلامه:

- « ان هنالك زهورا فوق القبر. لم يعد منعزلا بعد. فكثير من الناس يمرون على هذه الطرق في سيارات جديدة. و لم تعد كما كانت في أيامنا. انها الان في رفقة. لقد كانت في ريعان الشباب حينما قتلت نفسها.»

- « آه و لذا دفنت عند مفترق الطرق. لم أعرف أن العادة لا تزال جارية هنا.»

- « أجل. و كان ذلك منذ زمن بعيد. كنت دون الخمسين عاما. و ليس بين الاحياء اليوم من يعرف عن هذه الصبية المسكينة، و قصتها المحزنة بقدر ما أعرف أنا. لقد كانت تسكن في هذه المنطقة. في المزرعة المجاورة حيث كنت أعمل أجيرا لصاحبة المزرعة السيدة ناراكومب. انها الآن ملك نيك ناراكومب. و لا أزال أشتغل عنده بين الحين و الحين.»

و بعد ان أشعل آشرست غليونه و أطفأ عود الثقاب. رفع كفيه الى وجهه قليلا. و أومأ للرجل قائلا:

- « نعم؟»

و بدا له صوته غريبا أجش.

- « لقد كانت فتاة فذة. اني اضع زهرة على قبرها هنا كلما مررت به في طريقي»

« و لم يوافقوا على دفنها في الكنيسة. و لا في المكان الذي أرادت أن تدفن فيه هي.»

و ربت الشيخ بكفه على ملاط القبر و مضى يقول:

- « كانت قصة حب على ما أعتقد. و أنت لا تستطيع أن تحزر ما يدور في رأس الفتاة. و لكن ذلك ما اظنه أنا. و كنت أحب الفتاة. و كان الجميع يحبونها. فقد كانت طيبة القلب. و هذا هو السبب فيما أعتقد.»

و نظر الى آشرست و كانت شفتاه ترتعشان في ثنايا لحيته الكثة و هو يردد بين الحين و الآخر.

- « نعم؟»

- « و كان فصل ربيع. في مثل هذا الوقت أو بعده بقليل - موسم البراعم. و نزل في المزرعة أحد طلاب الكلية. و كان شابا طيبا و وسيما. و أحببته أنا كثيرا. و لكني لم ألحظ شيئا بينهما. و انما أظن أنه حرك عواطف الفتاة»

و أخرج الرجل غليونه من فمه و نفضه و عاد يقول:

- « و قد رحل فجأة في أحد الايام و لم يعد. و لم تزل حقيبته و بعض لوازمه الاخرى في المزرعة حتى اليوم. هذا ما يعن لي أنا. فلم يتحدث أحد عنه في شيء. و كان اسمه آشس أو ما يشبه ذلك»

- « نعم؟»

و لعق الشيخ شفتيه ثم عاد الى حديثه:

- « و لم يقل أحد شيئا! و منذ ذلك اليوم تغيرت حال الفتاة و عراها السهوم و الوجوم! و لم أر انسانا تنقلب حاله في ليلة و ضحاها كما انقلبت حال تلك الصبية، قط»

« و كان هنالك فتى من اهل القرية يدعى جوبيدافورد! كان يحب الفتاة. و قد حاول كثيرا ان يجتذبها اليه. و لكنها كانت تنفر منه في وحشية. و كنت أراها في بعض الاماسي حين أعود بالماشية من المرج و هي واقفة في البستان تحت شجرة التفاح الكبيرة تنظر بشرود الى الفضاء أمامها»

« و كنت أسرى عنها و أسالها عما يخامرها، و لكنها لم تكن تبوح بما يدور في خلدها»

و عاد الشيخ يملأ غليونه ثانية و يتلقى هزة من رأس آشرست ليعود الى قصته:

- « و أذكر أني قلت لها يوما: ما بالك يا ميجان؟ - و قد كان اسمها ميجان دافيد - من ويلز، كعمتها السيدة ناراكومب. هل تخافين شيئا؟ فكانت ترد عليّ بسهومها المعتاد قائلة: كلا يا جيم لا أخاف شيئا. و حين كنت ألح عليها، كانت تنفجر بالبكاء. فأقول: ما بالك تبكين هكذا؟ قولي. ماذا يضايقك؟ و عندها كانت تضع يدها على قلبها و تقول و الدمع ينهمر من وجنتيها: يوجعني! و لكنه سيشفى بعد قليل. و قالت مرة: اذا حدث لي حادث يا جيم فأريد أن تدفنني هنا تحت شجرة التفاح هذه. و ضحكت اذ ذاك و قلت لها: لا تكوني حمقاء!»

« و لم أكن أجهل ما يدور في قلوب العذارى فلم آبه بالامر. و لكني بعد مرور يومين لمحت و أنا عائد بالماشية في حوالي السادسة مساء شيئا عند حافة الجدول قرب شجرة التفاح. فظننته حيوانا. و مضيت نحوه .. و هناك رايتها»

و توقف الشيخ. و التمعت عيناه و هو ينظر بعيدا بألم دفين. ثم استأنف كلامه:

- « و كانت الفتاة - مضطجعة عند حافة الجدول حيث وضعت بضع صخرات لتجمع المياه في ما يشبه

الغدير حيث اعتاد الفتى أن يغتسل فيه كل يوم. و قد تدلى رأسها في الماء و تناثر شعرها فوق الحصى عند حافة الغدير»

« و دنوت منها و رفعت رأسها فوجدت وجهها جميلا مشرقا. وقال الطبيب أنها لم تكن لتغرق في مثل هذه البركة الضحلة لو لم تكن عازمة على ذلك باصرار»

« و كانت جميلة حتى في موتها. و مع أن الوقت كان في حزيران الا أنها كانت تحتفظ بغصن من براعم الربيع في مكان ما و قد غرزته في شعرها حين اعتزمت أن تموت. و لابد أنها كانت في غمرة جنون الحب. و أرادت أن تمضى بكامل زينتها»

« و بحت بوصيتها و رغبتها في أن تدفن تحت شجرة التفاح. و لكنهم رفضوا ذلك، و اتخذوا من قولي دليلا آخر على أنها ماتت منتحرة»

و عاد الشيخ يمر بيده فوق القبر و يمسح التراب عنه .

- « يبدو عجيبا حقا ما تصنعه الفتاة في سبيل الحب. لقد كانت طيبة القلب. و لكنها أصيبت بخيبة أمل .. أما نحن فلم نعلم من أمرها شيئا»

و نظر الى وجه آشرست و كأنه يبحث عن هزة تصديق لكلامه. و لكن آشرست كان قد تركه ومضى يخبط بقدميه دون أن يلتفت الى بقية حديثه.

و استلقى على مفرشه فوق الكثيب، بعيدا عن الآخرين و وجهه الى الارض.

« و اذن فقد كوفئت فضيلته!»

و تمثل له وجه ميجان مع غصن البراعم المغروز في شعرها المبتل و فكر في نفسه:

« ذنب من؟»

« غلطة من؟»

« الربيع و فورة زهوره و الحانه؟»

« الربيع الكامن في قلبه و قلب ميجان؟»

« أوه ..»

« الحب الذي كان يبحث عن ضحية؟»

و تهادت الى سمعه ألحان « هيبوليتاس» :

« ان للحب قلبا مجنونا»

« و أجنحة ذهبية ذات رواء»

« فاذا - بسطها للربيع ...»

« بعث الجنون، في الحياة الوحشية الشابة في:»

« الجبل، و موج البحر، و الجدول»

« و حملها على الجنون .. ،»

« و هو يبعث بهمساته مع أشعة الشمس:»

« نعم. نعم!»

« أيها الانسان! يا صاحب العرش:»

« ان سيبريان الهة الحب ملك يديك!»

« صدق الاغريق. يا ميجان. يا صغيرتي المسكينة. أتنزلين من فوق الكثيب الى شجرة التفاح لتموتي عندها بكل ذاك الجمال؟»

و طرق سمعه صوت:

- « آه. انت هناك؟ أنظر!»

و نهض آشرست و التقط اللوحة من يد زوجته. و تطلع فيها صامتا.

- « هل التخطيط متقن يا فرانك؟»

- « نعم»

- « لكن يبدو أن شيئا ينقصها. أليس كذلك؟»

و أومأ آشرست برأسه:

« ينقصها؟ ..»

« شجرة التفاح، و الاغاني، والذهب»

* * *